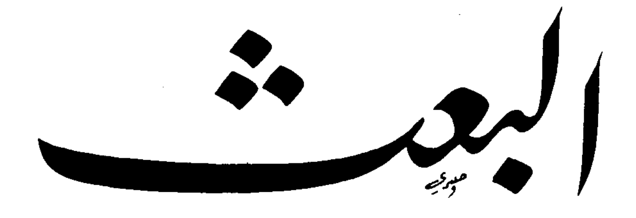


الكتاب العربي السعودي ٨١

محمد علي مغربي



مجموعة قصصية

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يَنسِلُونَ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ...؟ "

" قرآن كريم "

الناشـــر

تهـامــة

جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤



البعث

مجموعة قصصية



الإهداء

إلى كل شاب يُريد أنْ يشق لنفسه طريق المجد، ولأمته طريق الحياة ..

أهدي هذا الكتاب ..

المؤلف



مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية من « البعث » الرواية التي ظهرت قبل حوالى ستة وثلاثين عاما فقد كانت طبعتها الأولى في عام ١٩٤٨ للميلاد الموافق لعام ١٣٦٧ للهجرة ، وقد تفضلت « تهامة » مشكورة بطلب إعادة طبعها باعتبار أن البعث هو من أوائل القصص التي ظهرت في التاريخ الأدبي الحديث لبلادنا العزيزة ، وذلك ضمن نشاط تهامة في إحياء هذا التراث وتذكير الناس به ونشره بين الناس ، إلى جانب ما تقوم به من عمل عظيم في نشر الفكر وإشاعة المعرفة بهذه الكتب المتتابعة التي تتولى طبعها ونشرها لا في بلادنا الحبيبة فحسب وإنما في البلاد العربية الأخرى ، فحيا الله هذه الجهود المباركة والمخلصة وكتب لها ما تستحق من النجح والتوفيق .

وبعد فها هو(البعث)مرة أخرى وبعد أكثر من ثلث قرن من ميلاده ، لم أدخل عليه تعديلا ولم أتناوله بتبديل أو تحوير وقصة (البعث) هي حكاية شاب سافر من الحجاز إلى الهند للاستشفاء من مرض ألمّ به بعد أن تعذرت عليه وسائل الشفاء في بلده .

وقد رأى في البلاد التي هاجر إليها أشياء كثيرة اضطر معها أن يقارن ما رأى في الهند بما يعرف من أحوال بلاده ، فهو يتحدث كثيرا عن ما رأى وما يعهد ، ثم عاد إلى بلاده فتدفعه الحوادث التي تعترض طريقه إلى محاولة العمل الجاد المثمر ، فيقوم بادخال صناعة جديدة إلى البلاد ، ولا أريد أن أتحدث عن تفاصيل القصة فهي مبسوطة في هذا الكتاب،وخير للقارىء أن يقرأها بدلا من أن يقرأ حديثي عنها .

وسيجد القارىء نفسه بعد قراءتها مضطرا للمقارنة بين ما كانت عليه بلادنا الحبيبة قبل ثلث قرن وبين ما أصبحت عليه الحال الآن ، واني لعلى ثقة أن هذه المقارنة ستملأ قلب القارىء غبطة ، ونفسه اعتزازا ونشوة ، ولو لم يكن لإعادة طبع البعث من فائدة إلا هذه المقارنة لكفى

بها دافعا لإعادة طبعها ونشرها بين الناس .

ولقد أضفت إلى البعث ثلاث أقاصيص وجدتها بين أوراقي وبعضها يعود تاريخه إلى نحو عشر سنوات والبعض الآخر أقرب من ذلك ، وكنت أود أن أضيف قصصا أخرى نشرتها لي جريدة (صوت الحجاز)ومجلة(المنهل) قبل ذلك ولكني لم أجد أصولها عندي وليس لدي الوقت ولا الطاقة للبحث عنها ، وأضفت كذلك إلى هذه الأقاصيص مقامة سميتها «مقامة العروسين» ولست أعد المقامة قصة ، ولكن بعض الباحثين من الأدباء اعتبروا المقامة العربية طورا من أطوار القصة عند العرب فأثبتها ضمن هذه المجموعة .

وإني لأرجو أن يجد القارىء لهذه الأقاصيص وللمقامة شيئا من المتعة والفائدة .

وبالله التوفيق

المؤلف

الكنز

انتظم عقد الأسرة بعد انقضاء الأيام الثلاثة على وفاة رجل البيت الشيخ أيوب ، وتقدم الأستاذ خليل أكبر الأولاد الثلاثة ففتح الخزانة الخشبية الصغيرة بعد أن تسلم المفتاح من والدته وهي تنشج بالبكاء واستخرج منها وصية المرحوم وأخذ يتلوها على الحاضرين. لم يكن في الوصية من جديد، فخليل أكبر الأولاد كان قد مارس العمل في محل أبيه منذ أن ترك المدرسة قبل بضعة عشر عاما وما هي إلا سنوات حتى اتقن العمل المطلوب وقام بعبء إدارته إلى جانب والده الشيخ أيوب الذي كان يعمل في تجارة الأقمشة وبيعها في دكانه بسويقة ، أما اسماعيل الابن الأوسط فكان قد أتم دراسته في الخارج والتحق بإحدى الوزارات منذ ثلاثة أعوام، أما ثالث الأبناء صابر فهو في السنة الدراسية الأخيرة بكلية الشريعة بمكة المكرمة وسيلتحق بسلك القضاء بعد حصوله على الشهادة النهائية في وظيفة مناسبة .

أوصى الأب أبناءه أن يستمروا شركاء في العمل التجاري الذي أسسه منذ خمسين عاما وأن يستمر ابنه الأكبر خليل في ادارة العمل مقابل نسبة معينة من الربح ، وأن يتعاون الأولاد مع بعضهم البعض وعيَّن لكل واحد منهم طابقا في المنزل الذي يملكه لسكنه مع عائلته وأن تبقى والدتهم في الطابق الذي تشغله وأوصاهم باطاعتها وبرها ، ولكن الشيء الغريب في الوصية والذي دهش الأبناء حين سماعه هو البستان الصغير الذي يملكه في خارج المدينة والذي أوصاهم بالاحتفاظ به وعدم بيعه ولم يعلقوا أهمية كبيرة على هذا الأمر بالذات ، وإن كان خليل أكبر الأبناء كان يتمنى لو أمكن بيع البستان

واستثمار قيمته في تجارة المنسوجات خاصة وان هذا البستان قد أصبح أرضا جرداء الا من بعض الأشجار القائمة هنا وهناك والتي لا جدوى فيها بعد أن انقطع عنها الماء بجفاف البئر منذ سنين . ولكن المسألة أن صك هذا البستان لم يكن موجودا ضمن أوراق أبيهم فاتفقوا على أن يستخرجوا له صكا بدلا عن ضائع . ومضت الأيام وانشغل كل منهم بشؤ ون نفسه ولم يكن هذا البستان ذا قيمة كبيرة حتى يكون محل تفكيرهم ، ولهذا لم يستخرجوا له صكا آخر ، ومضت أعوام ثلاثة توفيت والدتهم بعدها ولحقت بأبيهم وحينما فتحوا خزانة والدتهم بعد وفاتها وجدوا مظروفا كبيرا مختوما بالشمع الأحمر وقد كتب عليه بخط والدهم أن يفتح بحضور الجميع .

وفتحوا المظروف فإذا بهم يجدون حجة البستان المفقودة ومعها ورقة بخط الوالد الشيخ أيوب يكرر فيها وصيته بعدم بيع البستان لأنه-كما قال-يحتوي على كنز ثمين وتبين لهم أن والدهم احتفظ بالحجة داخل هذا المظروف وسلمها لزوجته حينما شعر بدنو أجله لئلا يبيعه أولاده ، أما وقد توفيت والدتهم وقد اطلعوا على الحجة فقد خيّم عليهم الذهول ، كنز ثمين ، أي كنز هذا الذي خبأه والدهم في باطن هذا البستان الذي اشتراه قبل عشرة أعوام من وفاته .

إنهم يعرفون والدهم جيدا فلم يكن هو من النمط الذي يخبىء الكنوز في باطن الأرض ، وما هي الكنوز التي لديه حتى يخبئها لقد كان رجلا من صغار التجار يستغل كل ما يملكه من مال في تجارة المنسوجات التي عمل فيها طوال حياته بدأها بدكان صغير وانتهى بها إلى حيث هي الآن تاجر صغير إلا أنه حسن السمعة أمين مع زبائنه ، وان ابنه خليلاً ليذكر قصة شراء هذا البستان فقد اشتراه ببضع مئات من الريالات ، كان صاحبه مدينا ومضطرا للسداد وكانت له به صلة جوار قديم فاشتراه إكراما لهذه الصلة .

قال الابن الأكبر خليل إن الأمر محير فليس في البستان ما يدل على أن هناك شيئا يختفي فيه وأخشى أن يكون الأمر مجرد رؤ يا رآها الوالد في أحلامه فتصورها حقيقة وأوصانا بها ، وعلى أي حال فسأرتب رجالا يقومون بالحفر في أركان البستان وتحت الأشجار وأقف عليهم شخصيا لأراقب نتائج هذا الحفر . قال الابن الأوسط اسماعيل انني أفضل الوقوف على الأرض قبل أن أعطي رأيا في الموضوع ، أما الابن الثالث فاعتصم بالصمت ولم يشارك في الحديث وانطلقوا في اليوم التالي إلى الأرض فتعرفوا عليها ولم يكتف اسماعيل بالوقوف على الأرض وانما أخذ يجيل النظر فيما حولها من أراض

أخرى بل انه أرسل بصره بعيد ا الى الجبال البعيدة المتصلة بالأفق ثم قال ظننت أنه خيل للوالد أن ثروة معدنية في أعماق الأرض موجودة في تلك المنطقة فأحببت أن أشاهد الأرض على الطبيعة فلم أجد فيها ما يدل على هذا الاستنتاج ، وقال خليل:ما رأيكم في الاستعانة بمن يكشف لنا ذلك ممن لهم صلة بالأرواح؟وهنا صاح الابن الثالث وكان صامتا حتى تلك اللحظة : اسمعوا ، إن من يدعون معرفة الغيب لا يخرجون عن كونهم دجاجلة ومشعوذين وأنا لا أبيع عقلي لمشعوذ ولا أثق بكلام دجال فاصرفوا النظر عن هذه الفكرة لأنها ليست من الدين ولا من العقل في قريب أو بعيد، وانفضّ اجتماع الأبناء الثلاثة ولكن الأمر بقي يعمل عمله في نفوسهم وعقولهم أما الابن الأكبر خليل فقد شغله موضوع الكنز المدفون في أرض البستان وأخذ يفكر في الطريقة التي يستطيع بها الوصول إليه، وهداه تفكيره إلى أن التظاهر بإحياء الزرع في البستان هو الطريقة المثلي لاكتشاف الكنز المخبوء، ولكن هذا سيكلفه بعض المال، وكثيراً من الجهد، ولكن إغراء العثور على الكنز كان أكبر من أن يقاومه خليل فأعدّ عدته للأمر موطّناً نفسه على العمل والصبر.

- ٢ -

بدأ خليل بنثل البئر أولا وإزالة ما تراكم عليها من أحجار وأتربة واستأجر لهذه الغاية بعض المختصين في نثل الآبار ولكنه كان يراقبهم بعين يقظة وخاصة حينما يخرجون ما تراكم في داخل البئر من أحجار وأوعية قديمة وكثيرا ما هبط إلى البئر وشاهد عملية الحفر والنثل ، وكثيرا ما تعرضت يداه للخدوش وثيابه للاتساخ وهو يتشبث بحجارة البئر في صعوده وهبوطه ، ولم يكتف بتنظيف البئر وانما أخذ يرمم السور المتهدم ويمعن في الحفر لعله يجد شيئا ما دفينا في أحد أركان السور في حفرة على طول حائط السور ، وحينما ظهر الماء في البئر أخيرا وتم نثله وتنظيفه بدأ الحفر حول الأشجار وكان عظيم الأمل في أن يجد تحت شجرة من هذه الأشجار المتفرقة هذا الكنز الدفين وحينما كان يأوي إلى بيته في المساء بعد ذلك الجهد الشاق كان يتعرض للوم زوجته وهي ترى ما اتسخ من ثيابه ، وما تشقق من يديه وقدميه،ولكنه كان يتظاهر بعدم المبالاة ويطلق لتفكيره العنان،ترى ما هو هذا الكنز الدفين في البستان ، أهو صفيحة ملأى بالذهب والفضة ؟؟ عملات قديمة ثمينة تساوي أضعاف قيمتها في الوقت الحاضر ؟ أم هو سفط به بعض المجوهرات واللآلىء الثمينة النادرة ؟ أم هو جراب فيه بعض الأسلحة القديمة الثمينة :

سيوف وخناجر محلاة بالذهب ومرصعة بالجواهر القديمة من الزبرجد والياقوت والماس ؟ أم لعله زلعة فخارية متينة مسدودة الفوهة مليئة بالفصوص النادرة من الجواهر والمصوغات الثمينة والنقود الذهبية المختلفة الأحجام ؟ كانت هذه الأفكار التي يصورها له خياله عن الكنز تستأثر بلبه وتفكيره وتشغله عن بيته ومتجره وتنسيه ما يتعرض له في يومه من متاعب الحفر والتنقيب ، ولم يسترع الأمر نظر زوجه وأولاده وانما تعدى ذلك إلى اخوته فتحدثوا إليه في أن يكف عن هذا البحث المضني الذي لا طائل من ورائه وأن يعود سيرته الأولى إلى عمله وأهله . ولكن حلمه بالكنز وحرصه عليه كان مسيطرا على تفكيره فلا ينقضي يوم أو يومان يعود فيهما سيرته الأولى إلى متجره حتى يعاوده الأمل فيذهب إلى البستان مواليا الحفر تحت الأشجار وفي حائط السور ، وحدثت في النهاية حادثة مثيرة ، جاء إلى البستان والشمس توشك على المغيب ورأى أحد العمال منهمكا في الحفر وبجانبه عاملان آخران يراقبانه في اهتمام ، وأسرع إلى حيث كان العمال فوجد أن الحفر قد كشف عن جسم صلب في باطن الأرض ولكن هذا الجسم لم يتبين كنهه بعد ، وأسرع خليل فنقد العمال أجورهم وصرفهم بعد أن أوشك نور النهار أن ينتهي ويحل الظلام ، وقال العمال اننا سنحضر غدا لنرى ما هو هذا الشيء المدفون في باطن الأرض ، وزمجر خليل ما لكم ولهذا ، انصرفوا ولا تعودوا إنها أرضي انه بستاني ولا أريد لأحد منكم عملا ، وحينما انصرف العمال مندهشين ورآهم يلغطون خطرت له فكرة ماكرة ، ان هؤلاء العمال سيذهبون إلى المدينة ويذيعون خبر الكنز الذي ظهرت آثاره لهم ورأى أن الحكمة تقضي عليه باستمالتهم وربط ألسنتهم فما لبث أن استدعاهم وحينما رآهم مقبلين سعى إليهم وهو يفتر عن ابتسامة عريضة واستسمحهم قائلا : لا تؤاخذوني لقد كنت غاضبا من هذا الخادم اللعين حينما حضرت إلى هنا ، وأردف : انني لن أستغني عنكم فبكروا في الحضور لنخرج هذا الذي وجدناه هنا ، وإذا كان فيه شيء وهمس فستكون مكافأتكم عظيمة ، وخفض صوته أكثر : اسمعوا لا تقولوا لأحد شيئا ، وعليكم بكتمان السر وإلا ضاع تعبنا كلنا سدى . وفهم الرجال ما يرمي إليه فقالوا السر في بير ، وانصرفوا وهم يتواصون بالكتمان .

واتبعهم خليل ببصره حتى غابوا عن عينيه وعاد ينظر إلى الحفرة ويطيل النظر حتى خيم الظلام فانطلق عائدا إلى المدينة وقد اعتزم العودة إلى البستان لاستخراج الكنز في هذه الليلة وقبل أن يعود العمال إليه في الصباح ، وابتسم وهو يتصور العمال قادمين في

الصباح فإذا بالحفرة وقد استخرج ما فيها وإذا بها خالية إلا من التراب واستولت عليه النشوة فأخذ يقهقه في الظلام .

عاد خليل إلى بيته واستدعى اخوته اليه وأسر اليهم أن الكنز قد ظهر ففغروا أفواههم دهشة وهم يقولون كيف ؟ قال اسمعوا انني عائد لتوي من هناك وقد وجدنا في حائط البستان الشرقي أثناء الحفر جسما صلبا له رنين ، وقد انصرف العمال على أن يعودوا لاستخراجه في الصباح ، والرأي أن نذهب نحن إلى هناك وننتظر حتى يطلع القمر ونستخرج كنزنا بأنفسنا قبل طلوع الفجر وننقله إلى مكان أمين . قال أحد الأخوين والعمال ؟ ماذا نقول لهم حينما يعودون في الصباح فلا يجدون شيئا ، قال ليس هذا ما نفكر فيه الآن يجب أن نستخرج الكنز ونخفيه ولن تعيينا الحيلة لتدبر أمرنا مع العمال . . . وانطلق الأخوة الثلاثة عائدين بعد أن أعدوا أنفسهم للغياب عن منزلهم لاستخراج الكنز الموعود .

وطلع القمر رويدا رويدا من الغرب وما هي الا ساعة وبعض ساعة حتى غمر نوره الأرجاء ، وأصبحت الحفرة ظاهرة للعيان وقد قبع في آخرها هذا الجسم المظلم الرنان ، طرق خليل بفأسه في هذا الجسم فإذا به يرن رنين الصلصال ، واتفق الأخوة أن يوسعوا الحفرة حتى يتسنى اخراج هذا الكنز في يسر ودون أن يتعرض للكسر إذا ما هوى أحدهم بمعوله في الأرض فارتطم المعول أو انفلت من يديه . وأخذ الثلاثة يعملون كل في جانب حتى اتسعت الحفرة ثم أخذوا يحملون ما تراكم من الأتربة ويرمون بها بعيدا ولهثت أنفاسهم وانطلق العرق غزيرا من وجوههم وأجسامهم حتى ابتلت ثيابهم فأخلدوا إلى قليل من الراحة والهدوء .

أخذ الأخ الأصغر يوزع الماء البارد على اخوته ليطفئوا ظمأهم ثم استخرج من السيارة ما أعدوه لأنفسهم من عشاء خفيف تناولوه مع أكواب الشاي الأخضر ليكون لهم عونا على السهر ، لم يكونوا يتحدثون بقدر ما يفكرون ، وكانت أفكارهم كلها تتلاقى في نقطة واحدة : الكنز . ترى ما هو نوعه وما هو ثمنه وماذا به يفعلون ؟ كيف يسترونه عن العيون ، حتى لا يعلم به الناس ؟ وكيف يمكن الإفادة منه دون أن يظهر للعيون ؟

وعادوا إلى العمل بعد فترة الراحة وانطلقت المعاول تصعد وتهبط وكلما تراكم التراب أخرجوه من الحفرة وأبعدوه إلى خارجها وبعد عمل متواصل وجهد مضن اتسعت الحفرة وظهر الجسم المطلوب من كل جانب ولم يبق عليهم إلا أن يعمقوا الحفرة حوله

ثم يرفعوه من الحفرة إلى السطح ، وأخذوا ينظرون ويلمسون وقال خليل : انه جرة نحاسية كبيرة وقد علاها الصدأ من طول ما طمرت في التراب ، انظروا شكلها انها على شكل جرة الفول تتسع من أسفلها ثم تضيق في شكل مخروطي إلى أن تصل إلى العنق ثم تظهر الفوهة متسعة قليلا انها جرة من النحاس تشبه ما يستعمله بائعو الفول من جرار وكان التراب لا يزال محيطا بأسفل الجرة فأخذوا يعملون لإزاحته من حولها ، وحينما انتهى الحفر وأصبحت الجرة واضحة للعيان حركها خليل فإذا بها ثقيلة فتعاونوا على حملها وما ان تم ذلك حتى لاحظوا أن التراب يتسرب من فمها فأقاموها وجعلوا فوهتها إلى أعلى ولكن التراب كان يتسرب كذلك من ثقوب في قعرها وحينما وضعوها على السطح كانت أخف حملا وبدأ الشك يساورهم في أمر الجرة وما خبىء في باطنها ولم يتردد الأخ الأصغر وقد أدرك الحقيقة قبلهم في أن يقلب الجرة على فوهتها وما هي إلا لحظات حتى بدت الجرة فارغة ، لقد كانت ممتلئة بالتراب ! ولا شيء غير التراب ؟؟ جرة فول قديمة مخروقة طمرت في باطن الأرض منذ سنوات وسنوات فامتلأت بالتراب ؟ هذا هو الكنز الذي قضوا ليلتهم يعملون لاستخراجه ؟ اشتغلوا كما يعمل الفعلة وفيهم التاجر والمهندس والموظف المرموق ؟ أية سخرية وأي هزء ؟ انهم يسخرون من أنفسهم ، يستهزئون بعقولهم ، وما سيصيبهم من سخرية الناس وأقاويلهم إن سمعوا بما وقع سيكون أقوى وأعظم ، أما خليل فقد استبد به اليأس والغيظ ، إن كان اخوته قد قضوا ليلة واحدة في هذا الأمر فقد أنفق هو فيه الأيام الطوال وصرف من المال والجهد ما لم يصرفه سواه ، وإن كانت قد اتسخت أجسامهم وملابسهم لمرة واحدة فيا طالما اتسخت ثيابه وامتلأ جسمه بالتراب والخدوش ، وبينما هم في غمرة هذا الذهول انطلق صوت المؤذن ينادي بالأذان الأول للفجر فأفاقوا من غمرتهم ورموا بالجرة النحاسية في الحفرة وأسرعوا عائدين إلى المدينة قبل أن يسفر الصبح ويكتشف الناس من أمرهم ما يخفون .

- ٣ -

مضت الأيام بطيئة متثاقلة وخليل ما زال يرزح تحت عبء الخيبة المريرة التي مُنيت بها جهوده في البحث عن الكنز ، وكلما تذكر كيف خابت آماله في الجرة التي حسبها تحمل إليه الثروة العريضة والجاه غصَّ بريقه وانطلقت من صدره آهة حرَّى ، وذات يوم جاء لزيارته صديق له كانت له زوجة قد أصيبت بمرض عصبي عضال،وحار هذا الصديق في علاجها فسأله عنها فقال الحمد لله لقد شفيت مما ألمَّ بها وقد أراد الله لها بالعافية على يد

رجل صالح من أهل شنقيط له باع طويل ، ولمعت الفكرة في رأس خليل كما يلمع البرق لماذا لا يستعين بهذا الرجل في أمر الكنز قال فهل لك أن تدلني على الرجل أو تجمعني به ؟ قال : حباً وكرامة ،انه يسكن بجوار سلع وسأمرُّ به هذا المساء وأحضره لك متى أردت ، قال : لا إنني أريد أن أزوره في بيته ولا أريد أن يراه معي أحد ، وانطلق الصديقان إلى حيث يسكن الرجل في بيت صغير بجوار جبل سلع .

كان الرجل ربعة أميل إلى القصر وقد ارتدى ثوبا فضفاضا مصبوغا باللون الأزرق له كمّان واسعان ، واعتمر على رأسه عمامة كانت في الأصل بيضاء ولكن لونها أصبح ترابيا من كثرة الاستعمال ، وكانت بيده مسبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، أما شعر رأسه فقد اختلط فيه السواد بالبياض وبدت له لحية كثة تحيط بوجهه الأسمر الأدكن، وكانت له عينان تلمعان وفي يده مسواك كبير .

ورحب الرجل بخليل وصاحبه وأوسع لهما في مجلسه ، وكان قد علم من الصديق بأن لدى خليل ما يقوله له ، واستأذن الصديق بعد أن شعر أن خليلاً انما يريد أن ينفرد بالرجل ، واعتدل خليل في جلسته وقال له الرجل خيرا إن شاء الله ، وأخذ خليل يقص على الرجل قصة الكنز وما إن وصل إلى ذكر الجرة التي اكتشفها العمال حتى تحرك الرجل وظهرت عليه آثار الانفعال ، قال : هيه وماذا فعلت ؟ حذار أن تمسوها أو تقتربوا منها ، قال خليل والأسى يقطر من حديثه : لقد سهرنا الليل بطوله لاستخراجها وأخيرا وجدناها مملوءة بالتراب ، وضحك الرجل وقال : لقد أخفوا عنكم الكنز ، قال خليل : من الذي أخفاه ؟ قال الرجل : الخدام المحافظون عليه ، قال خليل : ومن هم هؤلاء الخدام ؟ وضحك الرجل مرة أخرى من سذاجة خليل الذي لا يفهم شيئا في هذه الأمور ، ونظر إليه نظرة طويلة ثم قال : عد إليّ غدا في مثل هذا الوقت حتى يتسنى لي أن أستعلم عن كنزك في هذه الليلة وسيكون خيرا إن شاء الله ، وحين تهيأ خليل للقيام همس في أذنه : لا تخف ان الكنز محفوظ ولكنه يحتاج إلى عمل طويل وسنرى غدا ماذا يكون .

عاد خليل إلى دكانه وقد اشتغل ذهنه بما سمع من الرجل وأدرك أن المسألة أصبحت تكتنفها الأسرار ، وقد اعترف فيما بينه وبين نفسه انه واقف على شاطىء بحر عميق لا يعرف كيف يدخل فيه أما إذا دخل فهو لا يعرف طريق الخروج .

شيء واحد خرج به من هذه المقابلة ، وهي أن الكنز لا يزال محفوظا وأن استخراجه لا يزال في حيز الإمكان ولكن ترى ماذا سيقول له هذا الرجل العجيب غدا ؟ وسأل نفسه : ألا يكون الرجل دجالا ؟ ولكن ألم يكن هو الواسطة في علاج زوجة صديقه التي كانت على وشك الجنون ؟!

وبدأت الأفكار تراوده والأمل يعاوده ، ولم ينم ليلته تلك إلا غرارا ولاحظت زوجه ما طرأ عليه فسألته ماذا يحس ؟ ولكنه لم يخبرها بشيء . وفي اليوم التالي ذهب إلى مقابلة الرجل فوجده بانتظاره وقابله هذا بابتسامة عريضة وهو يقول : أبشر يا خليل ان الكنز موجود وقد رأيته بعيني هاتين ، قال خليل : حقا ؟ قال : اي والله ، وسكت برهة ثم أردف في صوت يشبه الهمس انه كنز مرصود ، ويجب علينا أن نفك الرصد أولا حتى يظهر الكنز ، قال خليل : وكيف نفك هذا الرصد ؟ قال : إن هذا يقتضي له عملاً طويلاً . . . . ثم قال : نحتاج إلى أشياء كثيرة من العطارة ، ماء ، ورد ، وزعفران ، ومسك وعنبر أشهب ، وأشياء أخرى لا تعرفها ، وجلد غزال بكر ولوح كبير من الفضة تكتب عليه أسماء معينة وتوضع هذه الأشياء في صرتين واحدة تدفن في الأرض ، والأخرى ترمى في البحر ، ولا بد من ثور كبير أسود يُحضَّر للذبح ليس فيه نقطة بيضاء ، وبعد هذا يمكن فك الرصد ، قال خليل : وما هي تكاليف هذه الأشياء وكيف نحصل عليها ، قال : لا عليك انني أعرف كيف أجدها جميعا وعليك أن تحضر ألف ريال من تحت الحساب لشراء هذه اللوازم ، كما ان عليك أن تبحث عن الثور حينما يقترب عملنا من نهايته . . . . قال خليل وهو يتردد : ثم ماذا . . . ماذا عنك أنت . . . ؟ فضحك الرجل وقال : انني لا أعمل هذه الأشياء بقصد الربح ، ولكن كما تعلم أتعرض فيها للمخاطر لأن فك الرصد ليس بالأمر السهل ، اذا ظهر الكنز فسأتقاضى منك عشرة آلاف ريال كاملة تدفع لي نصفها قبل استخراجه والنصف الآخر بعد أن تراه رأي العين . وتاه خليل في أفكاره من جديد ، وسأل نفسه أهي مغامرة أخرى في سبيل الكنز ، وهذه الألف ريال التي يريدها الرجل سلفا ، ثم هذا الثور ترى ماذا يفعل به أيذبحه وكيف يجوز الذبح لغير الله ؟ أم هو صدقة ولكن لماذا يكون هذا الثور أسود لا بياض فيه ؟ ألا يدل هذا على أنه ليس للصدقة وانما هو لأعمال لا يرضاها الله ورسوله ؟ وقام وهو يقول للرجل سأعود اليك فيما

بعد ، ولكن أكتم يا صاحبي ما علمت من هذا الأمر فإن الكتمان في مصلحة الجميع . . . وأخذ خليل يدير المسألة في ذهنه ويقلب الرأي فيها ولكنه لم يتوصل إلى قرار . كان الشك في أمر الرجل يراوده ، وكانت الخشية من أن يقع فريسة لدجال أو مشعوذ تجعله يتردد في الإقدام على الأمر ، وكان الخوف من أن يكون فيما يعمل مغضبا لله تعالى مستحقا للعنه ينغص عليه حياته وأمنه ، ولكن الرغبة في الحصول على الكنز والتمتع بالثروة الطائلة والجاه العريض تراود أحلامه ، وتسيطر على نفسه ، وطال به التردد ولكنه أصبح ذات يوم وهو يغذّ السير إلى سفح الجبل حيث وجد الرجل فسلمه الألف ريال ثم سأله وهو يرتجف : ولكن قل لي يا صاحبي هل هذا الثور الذي تريده للذبح يكون صدقة أم . . . وجف ريقه ولم يستطع أن يكمل ، ولكن الرجل فهم عنه ما يريد ، قال : اسمع يا خليل هذه مسألة لا شأن لك بها إن هذا الثور سيكون وليمة لحراس الكنز ، ولن تحضرها أنت ولن تراها ان عليك أن تبحث عن الثور الأسود ليكون حاضرا حين الطلب ، قال خليل وإذا لم أجد الثور ؟ قال وهو يربِت على كتفه : لا تخف سندلك عليه والآن اذهب وابحث عن الثور واذا وجدته فأخبرني . . . لم تنقص هموم خليل بعد أن دفع النقود للرجل بل زادت حتى أصبح الأمر ملحوظا بالنسبة لمن حوله ، وكان التفكير في موضوع الكنز يشغل باله كما ان مسألة الثور كانت تنغص عليه حياته وأحلامه فكلام الرجل عن الوليمة التي سيقيمها لحراس الكنز لم تطمئنه وانما زادت هواجسه وشكوكه ، وكلما فكر في أن الرجل مشعوذ تذكر كلام صديقه عنه وكيف أن زوجته شفيت على يديه وهو لا يعرف في صديقه إلا الصدق ولكن هذا الثور اللعين ما دخله في المسألة وازدادت هموم خليل وشحب لونه وأصبح دائم الشرود والتفكير .
وفي احدى الليالي التي طال فيها أرقه وجد نفسه قبيل الفجر يغادر مضجعه ويتوضأ ويسير إلى الحرم الشريف لانتظار صلاة الفجر ، وصلى الفجر في جماعة وعاد وهو يشعر بشيء من الطمأنينة ويسأل الله تعالى أن يلهمه الرشد وينير له الطريق ، ونام خليل ولكن لم يطل به النوم فقد أفاق على صوت زوجته وهي توقظه وفتح عينيه فوجدها مشدوهة تسأله ما بالك لقد كنت تصيح في نومك وتستغيث ؟ هل أصابك كابوس قال : لا ولكنها رؤ يا أفزعتني ، قالت : وما هي هذه الرؤ يا ؟ قال : ثور أسود هائج كاد أن ينطحني بقرنيه لولا أن تداركني أبي فأبعدني عن طريقه أحمد الله انها كانت رؤ يا منام ولم تكن حقيقة واقعة .

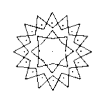
كانت هذه الرؤ يا نورا أضاء الطريق أمام خليل ، انها رؤ ية واضحة ، ان الاقدام على هذه العملية فيه هلاكه ، ألم ير هذا الثور الهائج الذي كاد أن يفتك به لو لم يتقدم والده لإنقاذه ، وفي الحال قرر العدول عن المضي في الموضوع والانصراف عنه ولكن هذه الألف ريال التي استلمها الرجل كيف يسترجعها ؟ انه يدرك حقيقة أن استرجاع هذه النقود هو كاستخراج الفريسة من أنياب الليث . . .

- ٤ -

اطمأنت نفس خليل بعد الرؤ ية التي رآها وأخذ نفسه بالحزم والجد فانصرف إلى عمله ينفق فيه وقته وجهده ، والى حياته العادية دون أن يفكر في الكنز الذي تجرع الغصص بسببه ، والذي فقد فيه ماله وطمأنينة نفسه ، ومضت أعوام حسنت فيها أحواله وراجت تجارته وانتعشت المدينة وتحسنت اقتصادياتها فنمت التجارة واتصلت الطرق واجتاحت البلاد كلها نهضة عمرانية واسعة فأخذت مشاريع التوسعة والبحث عن المياه وسفلتة الشوارع وإضاءتها تعم مدن المملكة الرئيسية بل وتزحف إلى القرى ، وانتشر العمران ، وأقيمت الفنادق الكبيرة على الميادين القريبة من المسجد النبوي الشريف وارتفع ثمن الأرض بعد أن اتسع العمران حتى بلغت أضعاف أثمانها السابقة ، وتقرر أخيرا إجراء توسعة جديدة وضخمة للمسجد النبوي الشريف ونزعت بعض الملكيات بالفعل وتردد أن التوسعة ستشمل المسجد الشريف من ثلاث جهات وان نزع الملكيات سيشمل بيوتا كثيرة وأحياء كاملة ، وبلغت أثمان الأراضي أسعارا خيالية لم يحلم بها أحد من قبل ، وبيعت بعض الأراضي والمنازل داخل المدينة بمبالغ تصل في مجموعتها إلى ملايين الريالات ، وقد أفاد خليل واخوته من هذا،فالمنزل الذي يسكنونه سيصبح قريبا من المسجد ومن يدري فقد يصبح مشرفا على فناء المسجد اذا تقرر ازالة ما حوله من بيوت ، وبدأ الدلالون يعرضون على خليل واخوته أسعارا مغرية لبيع منزلهم ولكنهم قرروا التأني وعدم البيع .

وذات يوم جاء الاخوان إلى خليل وقال له اسماعيل لقد جاءني الدلال اليوم يسوم البستان لقد دفع لي في المخزن ثمانمائة ريال ولكني طلبت منه ألف ريال وذهل خليل وهو يستمع إلى أخيه ، ان البستان تبلغ مساحته مائة مخزن (المخزن هو اصطلاح لمساحة الأرض يستعمله أهل المدينة المنورة ومساحة المخزن اثنان وأربعون

مترا) ، (حوالى عشرة فدادين) . لقد دفع الآن فيه ثمانمائة ألف ريـال وهم يطلبون فيه مليونا من الريالات ورفع رأسه وقال انه مبلغ كبير وأردف هذا والله هو الكنز يرحم الله الوالد رحمة واسعة ولكن الأخ الأصغر لم يمهله حتى يكمل فقال اسمعوا انني أراقب حركة العقار والأراضي في المحكمة منذ شهور والأسعار في ارتفاع وتصاعد وما يباع اليوم بعشرة يباع بعد بضعة شهور بخمسة عشر ، والرأي عنـدي الّا تتعجلوا في البيع ، وحينما تقررون البيع لا تبيعوا الأرض كلها ، بيعوا نصفها أو قسما منها يكفيكم لإنشاء عمارة على قسم من الأرض الباقية واحتفظوا بباقي الأرض فبعد سنوات قليلة ستتفتح لكم عن كنز جديد ، وأضاف أن المال يجيء ويذهب أما الأرض فباقية لا تزول .





الرجل النكد الطبع

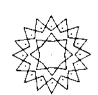
كان رجلا نكد الطبع بادي الجهامة وَعر الخلق وكان لا يرى إلا متضجّرا متبرّما يشكو من كل شي ، وكان أسوأ ما يكون خلقا وأشرس ما يكون طبعا حينما يكون في داره ، وكان أهله يعرفون ما طبع عليه من سوء خلق فكانوا يبتعدون عما يظنون انه يثير غضبه وكانت زوجه امرأة صبوراً مطيعة رزأتها الأيام بهذا الزوج ورزقت منه ولدا وبنتين فكان لا بد لها أن تتعايش مع شراسته وسوء خلقه ، ومرض الرجل وذهب إلى الطبيب فطلب منه تحليلا للبول وعاد يزفر ، أطباء آخر زمن ، ما للمرض وللبول ولا بد أن نجمعه لمدة أربع وعشرين ساعة ، ألا يكفي مرة أو مرتين ؟ واستمر ينفث سخطه على الطب والأطباء حتى انقضت المدة المطلوبة وأخذ الزجاجة الى مركز التحليل فطلبوا منه العودة في اليوم التالي وعاد مرة أخرى وهو ساخط متبرم ما الداعي لكل هذا التعطيل ؟ ومنذ متى يعتمدون على التحليل والتصوير ؟ لقد كان الأطباء يفحصون المريض ويصفون له العلاج في الحال ، وإلا فما فائدة دراستهم وتعليمهم ؟ وعاد في اليوم التالي ليأخذ النتيجة ويذهب بها إلى الطبيب واستمر ينتظر دوره فقد كانت العيادة مكتظة بالناس ووصل إلى الطبيب أخيرا وسلمه نتيجة التحليل وبسط الطبيب الورقة ولم يلبث أن ظهر عليه العجب الشديد وابتسم الرجل ولو لم يكن معروفا برزانته وهدوء طبعه لضحك بدل الابتسام ، وكان صاحبنا يتشوق إلى معرفة النتيجة وأخذ العلاج فإن هذا الورم الذي أصاب ساقيه أخذت تشتد آلامه ، وقبل أن يفتح الطبيب فمه بكلمة قرع جرس التلفون وظهر

الضيق الشديد على وجه صاحبنا وأخذ يتمتم في سرّه ، وهذا التلفون ألا يحلو له أن يرن إلا الآن ؟ وهذا المتكلم أما كان يستطيع الانتظار حتى انتهي من الطبيب أو ينتهي مني ؟ وكانت المكالمة استدعاء عاجلا لحالة طارئة فقام الطبيب يجمع أدواته ويترك العيادة تلبية لنداء الواجب ، والتفت إلى صاحبنا وهو يضحك ضحكة خفيفة لا بد من اعادة التحليل ووقع الأمر على رأس صاحبنا كالصاعقة ماذا ؟ ألم يكفِ ما أضعنا من أيام حتى نعيد التحليل وقبل أن ينبس بكلمة نظر اليه الطبيب وهو يقول : ان التحليل يظهر وجود حَمْل ؟ لا بد وأن هناك خطأ قد وقع ، وانقضّ كلام الطبيب على الرجل كما تنقضّ الصاعقة وركبه الذهول وكان الطبيب قد غادر العيادة وامتطى سيارته إلى حيث يريد ، ولا يدري صاحبنا كم بقي في العيادة ذاهلا عن نفسه وعما حوله ، ودارت به الدنيا واحتقن وجهه ولهثت أنفاسه وسار إلى داره وهو لا يدري كيف يسير ، وأخذ يحدث نفسه أي بلاء هذا الذي نزل عليّ حَمْل ؟ لبطن الأرض خير من ظهرها وما هذه الفضيحة على آخر العمر ، وكان قد سمع أن هناك رجالا تحولوا إلى نساء ، ونساء تحولن الى رجال بين يوم وليلة ووصل الى داره وهو في همٍّ لم يعرف له مثيلا في كل ما مضى من عمره ، وانخرط على الأرض لا تكاد تحمله قدماه وبدا كأنه قد زاد عشرين عاما أو ثلاثين وهو زائغ العينين محمر الوجه لاهث الأنفاس . . . وقالت له زوجه خيرا ان شاء الله ماذا جرى يا أبا محمد فنظر اليها نظرة منكرة وهو يقول أي خير؟ أغربي عن وجهي ولا تسأليني عن شيء فابتعدت عنه واجفة وأخذ الرجل يفكر ويستعيد كلام الطبيب ، التحليل يظهر أن هناك حملا أي بلاء هذا وأية فضيحة ؟ ونظر الرجل الى بطنه المنتفخ والى ساقيه المتورمتين ودمعت عيناه رغما عنه فلم يكن من طبعه البكاء وقال لنفسه : أنا الرجل المستقيم الذي يذهب من داره إلى دكانه ، ومن دكانه الى الحرم ثم الى بيته أبتلى بهذه المصيبة ؟ انها والله لفضيحة الدهر وليت الموت سبق هذه المصيبة فهو والله أستر وأرحم . وعادت الزوجة تحمل سفرة الأكل استعدادا للعشاء ولكنه أشار اليها انه لا يريد طعاما وحاولت معه أن يأكل شيئا أي شيء فصاح عليها قلت لك لا أريد سُمّاً هيًا أغربي عن وجهي ولا تكلميني، وقضى الرجل ليلته يتقلب على جمر . . . وأصبح منهارا لا يقوى على الحركة وبات واضحا للزوجة والأولاد أن الأمر بالنسبة للرجل جد خطير ، وانصرف الأولاد الى مدارسهم بعد أن رفض الإفطار

معهم كما تعود أن يفعل كل يوم وحينما خلا البيت من الأولاد اقتربت الزوجة من صاحبنا وكانت قد عزمت على حمله على الكلام مهما بدا من جفوته وانتهاره وكان مستلقيا على فراشه ورأسه الى جهة الحائط فلم يرها لأنه كان يبكي ودموعه تبلل خديه ، قالت له في صوت لم يعهده منها من قبل : أتبكي يا أبا محمد ؟ اني لم أرك قبل اليوم باكيا قل لي بالله ماذا يبكيك ، وما هو الأمر الذي أدخل عليك الهم والحزن ، وأخذت تمسح دموعه وتربت على رأسه وتقول انني زوجك وأمُّ أولادك فلم لا تخبرني بما يكربك ويثقل عليك ؟ هيا تكلم يا أبا محمد ، ولن يطلع على الأمر أحد ، انني أولى الناس بك فلا تخف عني شيئا ، والتفت اليها الرجل وقد بدا عليه الضعف والانهيار ولكنه لم ينبس ببنت شفة وانما أطلق تنهيدة من الأعماق تفصح عما ينوء به من هموم ولم تزل به حتى أخذ في الكلام على كره منه قال : انها مصيبة الدهر يا أم محمد ماذا أقول لتمنيت والله أن أموت قبل أن تقع هذه المصيبة على رأسي فتعوذت المرأة وهي تقول أية مصيبة ؟ أفصح انني لا أفهم عنك شيئا ، قال : خير لك الّا تفهمي ، قالت : لا بد أن أعرف الأمر مهما كان ، فنظر اليها الرجل نظرة طويلة فأخذت تشجعه على الكلام قال : ذهبت الى الطبيب أمس وحملت اليه نتيجة تحليل البول واختنق صوته بالبكاء فلم يستطع أن يكمل قالت : ها ماذا قال لك ؟ قال : وهو يجهش بالبكاء طلب مني اعادة التحليل وتلجلج صوته فأدركت المرأة أن هناك شيئا فألحت ولماذا ؟ قال بعد لأي وتردد : يقول إن التحليل يظهر حالة ولم يستطع أن يكمل فقالت وقد لمع ذهنها حالة حَمْل فجلس الرجل ونظر اليها نظرة ثاقبة سريعة وهو يقول من قال لك ذلك ؟ فضحكت وهي تقول لم يقل لي أحد ولكني وقبل أن تكمل صاح عليها : أتضحكين، هل هذا وقت الضحك ؟ فاسترسلت في ضحكها وهي تقول : لا تخف يا أبا محمد لقد كنت أنظف الحمام ووقعت الزجاجة التي كنت تجمع فيها البول فأكملته من عندي ولا بد وقبل أن تكمل صاح الرجل : وكيف فعلت ذلك ؟ قالت : خوفا من طبعك النكد ، لو أنك حضرت ورأيت الزجاجة وعرفت أنها وقعت في الحمام لكنت أنزلت بي وبالبيت كله سخطك أياما وأياما فقلتُ أشتري نفسي من النكد وأكمل الزجاجة من عندي وهكذا كان ، وأردفت انك تبشرني الآن بحمل جديد كنت أشكُّ فيه ولأول مرة انفرجت أسارير الرجل وأخذ رأس زوجه يقبلها ويحمد الله على هذه

النهاية السعيدة ، ولكن الزوجة وجدت فرصتها لتنفس عن صدرها وهي تقول :

لو كنت رجلا من الناس تعامل أهلك بالحسنى لما وقعت فيما وقعت فيه من هم ونكد اقسم لي على أن تكون بعد اليوم رضيَّ الخلق سَمْحَ الطباع ، قال : أقسم بالله أن أكون .



بقرة الشريف عون

قالوا انه كان للشريف عون الرفيق شريف مكة المكرمة وأميرها في عهد الدولة العثمانية بقرة ساربة تطوف في أسواق مكة المكرمة وتعبث ما شاءت فيما تحفل به هذه الأسواق من أنواع الطعام وكان يحلو لهذه البقرة التوقف أمام حوانيت الحبابين والخبازين تأكل من الزنابيل والبسطات ما تجده أمامها دون رادع ، ومن ذا الذي يستطيع أن يدفع بقرة الشريف أو يمسها بسوء وهي تستمد حرمتها من مقام سيدها الكبير؟ وضاق أصحاب الحوانيت ذرعا بالبقرة وما تلحقه ببضائعهم من الأذى والخسران فاجتمعوا لدى شيخ السوق وتداولوا الأمر فيما بينهم فقد كان هناك إجماع على الشكوى من هذه البقرة وتصرفاتها ، وأخيرا قر قرارهم على أن بقاء البقرة على هذا الحال فيه ضرر بهم لا يطيقون احتماله ، كما أن الشريف لا يرضى به واتفقوا على أن الشريف ليس لديه علم بأمر هذه البقرة وإلا لأصدر أمره بحجزها ومنع أذاها عن الناس ، واتفقوا أخيرا على أن يذهبوا مجتمعين الى قصر الشريف ويرفعوا اليه أمرهم ليأمر خدمه بكف أذى هذه البقرة وحجزها عن التجوال في الأسواق .

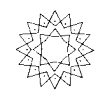
وفي اليوم التالي تجمع ما ينوف على خمسين من أصحاب الحوانيت لدى شيخ السوق وبدأ الجمع مسيرته من دكان الشيخ بالهجلة ، وما ان وصل القوم الى منتصف الطريق حتى كان قد انسل من بينهم ما يقرب من عشرين شخصا . . . وحينما وصل الجمع الى القشاشية كان عشرة أشخاص آخرين قد تسللوا

عائدين . . . واستمر التناقص في العدد تدريجيا الى أن وصلوا الى قصر الشريف في الغزة وعند مدخل القصر كان هناك عشرة أشخاص وعند أوائل السلم كان خمسة من العشرة قد تخلفوا عن الصعود ، وانسل اثنان آخران بعد أن خطوا بضع درجات من سلم القصر وأصبح الباقون ثلاثة أشخاص شيخ السوق ورجلان آخران وحينما وصل الشيخ إلى باب البهو الكبير الذي يجلس فيه الشريف ورأى الشريف جالسا في صدر المجلس الكبير تلفت حوله فوجد نفسه وحيدا . . . لقد تراجع الشخصان الآخران ولم يبق سواه ، ولم يكن هناك مجال للتراجع فقد أصبح وجها لوجه أمام سيدنا ، وأمام الجمع الحاشد الذي يحفل به المجلس الكبير . وتحيّر الرجل وهو يخطو وئيدا الى حيث يجلس الشريف ماذا يقول له ؟

أيشكو اليه أمر البقرة وما تفعله بالسوق وأهل السوق ؟ وماذا لو قال له الشريف وهل أنابَكَ أهل السوق عنهم لتأتي الينا ؟ انه يعرف سيدنا سيقولها حتما ، هل يفضي اذ ذاك بالخبر على حقيقته ويخبره بتخاذل الشاكين وتراجعهم ؟ وماذا لو قال له الشريف ولماذا لم ترجع معهم حينما رأيتهم يتراجعون ؟ وثارت نفس الشيخ على السوق وأهله الذين أوقفوه في هذا الموقف الحرج ولم يتردد لحظة حينما لمعت في ذهنه فكرة كلمح البرق فحث خطاه إلى حيث يجلس الشريف ولثم يديه وهو يقول أدام الله عز مولانا الشريف وأبقاه ، ورفع الشريف رأسه وهو يقول : خيرا ان شاء الله ؟ قال الشيخ : هذه البقرة المباركة يا مولاي والتفت الشريف الى الرجل في دهشة وتابع الرجل يقول : انني موفد من أهل السوق لأشرح لسيدنا أمر هذه البقرة المباركة وأردف انها بقرة مباركة يا مولاي انها بقرة ميمونة ، ان أهل السوق يتعاركون من أجلها . . . الكل يريد أن تقف أمام دكانه وتمد فمها لتأكل من هذه الزنابيل والبسطات ولو قليلا ، ان الدكان الذي تقف أمامه يمضي صاحبه يوما سعيدا ، انها مصدر الفتوح والبركة ، ان بقرة واحدة يا مولاي لا تكفينا اننا نحتاج على الأقل الى عشر بقرات تطوف بأسواق مكة المكرمة ابتداء من الجودرية وسوق الليل فالقشاشية والمعلاة فأجياد والسوق الصغير فالهجلة والشبيكة فحارة الباب فجرول حتى الشيخ محمود وابتسم سيدنا وهو يسمع إلى هذا الشيخ وأدناه منه وهو يقول أي بقرة هذه إنني لا أفهم عنك شيئا ؟ وهدأ روع الشيخ وجلس الى الأرض بين يدي الشريف وهو يقول : ان لسيدنا بقرة ساربة تطوف بأسواق مكة المكرمة ،

ولكنها بقرة مباركة وقد أدرك أصحاب الحوانيت بالتجربة مقدار ما ينالهم من الرزق وفي اليوم الذى تقف فيه هذه البقرة أمام أي دكان من دكاكينهم، وبقدر ما تأكل البقرة من هذا الدكان بقدر ما ينال صاحب الحانوت من خير في ذلك اليوم، ولهذا فإن أصحاب الحوانيت وقد عرفوا من أمر هذه البقرة ما ذكرت لسيدنا أصبحوا يتعاركون عليها، الكل يريدها أن تقف أمام حانوته وأن تمد فمها لتأكل ما تريد، ولهذا فإن بقرة واحدة يا مولاي لا تكفي لأسواق مكة كلها وقد رأيت أن أشرح الأمر لسيدنا ليأمر بإرسال ما يكفي من البقر للطواف بالأسواق لتعم البركة بين الجميع.

وهكذا خرج شيخ السوق من الموقف الحرج الذي وقع فيه . وهكذا علم سيدنا بأمر البقرة .





مقامة العروسين

قال لي صاحبي وهو يفكر في الزواج :

أريد زوجة ذات حسب ونسب جميلة الوجه بيضاء كالبدر ، حوراء العينين ، سوداء الشعر ، ناصعة الجبين ، أسيلة الخد ، هيفاء القد ، لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، معتدلة القامة لا بالهزيلة السقيمة ، ولا المليئة الشحيمة ، قلت ثم ماذا قال : أريدها وديعة مطيعة ، عذبة الحديث إذا تكلمت ، حسنة الاصغاء اذا تسمعت ، حكيمة مدبرة ، لا شحيحة ولا مبذرة ، ولود ودود تحسن ترتيب المنزل ، وتربية الأولاد ، وتتقن الطبخ والغسل ، لا تستعين بخادم ، ولا تعتمد على نادل ، تحب الدار فلا تكثر من الخروج ، وتعشق الهدوء فلا تستقبل الزائرات ، قلت هات ثم ماذا ؟ قال تحب أهلي وتكرمهم فتعظم أبي وتلثم راحة أمي وتخدمها وتتحفها بأطيب ما تُعِدُّ من الطعام وتعاملهما كأنهما لها أبوان ، قال : وتكرم اخوتي واخواتي وتفسح من صدرها ودارها لاستقبالهم مع أزواجهم وزوجاتهم وأولادهم وبناتهم ، ولا يظهر عليها الملل ان أطالوا الجلوس ، ولا الضيق ان عبث أولادهم بأثاث الدار فحطموا التحف أو لوثوا الزرابي ، أو كسروا الأرائك ، أو تجاروا وتباروا بل تستقبل كل هذا بالابتسام وتبادر إلى الاعتذار عنهم ان همَّ الأهل بكفِّهم أو انتهارهم ، قلت وماذا بعد ، قال أن يكون أهلها على كثير من الذوق والحساسية فلا يباكرونا صباحا ومساء ، بل تكون زوراتهم كبيضة الديك مرة في العام ، وألّا يدخلونا في مشاكلهم ، ولا يشركونا في أمورهم الخاصة ولا يهدون إلينا ولا

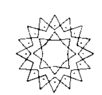
يستهدون منا ولا يعيروننا ولا يستعيرون منا وإذا أهدونا فلا ينتظروا الرد ، واذا استعرنا منهم لا يغضبهم الفقد ، قلت : هات ثم ماذا ؟ قال : هذا يكفي فإنني لا أحب المغالاة ، ولا أرغب في طلب المحال قلت : انني أعرف فتاة يتوفر فيها كل ما ذكرت من المحاسن والصفات ،لكن والدها يرغب أن يزوجها لمن تتوفر فيه كذلك بعض السجايا والمزايا قال : هات :

قلت انه يريد لابنته زوجا له حسب ونسب يفخر بأبيه وجدِّه ويدلُّ بعمومته وخؤولته ، ويعتز باخوانه وأخواته ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الشائن ، حسن الوجه وسيم قسيم ، أزهر أعين سويّ الجسم ، صحيح البنية قويٌّ كالفرس متناسق الأعضاء كتماثيل يونان ، شجاع إذا أقدم ، حكيم اذا تريث ، كريم جواد، لا يرد السائل ، اذا أعطى أغنى واذا وهب أقنى ، سمح الطبع ، موطأ الأكناف ، حليم لا يجهل ، عفيف لا يسأل ، حسن الملبس والشارة ، طيب الرائحة ، عطر السيرة رحب الفَناء ، كثير القِرى ، زعيمٌ في قومه ، اذا تحدَّث أفصح ، واذا سعى أنجح وأفلح ، يحمل الكَلّ ويواسي المُقِلّ ، يعين على النوائب ، ويخفف المصائب ، يسد الثغرات ، ويستر العورات ، يهزه الثناء ويكره الرياء ، يصل الرحم ، ويحفظ الحُرَم صادق لا يكذب وفيٌّ لا يخون ، كتوم لا يفشي سرا ، أمين لا يبيِّت غدرا ، وليس بالحجود المنان ، ولا بالسفيه اللعَّان ، كريم لا يمنع ، حليم لا يغضب عَفُوٌّ يقابل الإساءة بالإحسان ، قلت أن يكون له زوج ابنته ولدا أبر به من الولد سنداً له أي سند ، يبذل له المال والجاه ، ويدفع عنه بالسيف والقناة ، يعظمه إن حضر ، ويتفقده إن تأخر ، يحب والدة ابنته ويكرمها ، ويرعى شؤونها ويحترمها ، ويؤثر الكبير والصغير من اخوة ابنته وأخواتها من أبناء عمومتها وعماتها ، وأخوالها وخالاتها إن حضروا أكرمهم وإن غابوا أحضرهم ، يهدي اليهم ولا ينتظر منهم الاهداء ، ويقرضهم ولا يترقب الوفاء .

قلت ويحب عروسه فلا يرى الا بعينها ولا يسمع إلا بأذنيها فهما روحان في جسد ، وعينان في بصر ، تتصرف في ماله بلا استئذان وتبرم في أمره بلا إيذان ، لا يرد لها طلبا ولا يسقط لها كلمة فهي في بيته أميرة بلا إمارة وهو لها وزير بلا وزارة .

قال : وبعد ؟ قلت : ان والد الفتاة يرى أن هذه الصفات اذا توفرت في الخطبة فهو بها قانع فهو لا يريد مغالاة ولا يطلب استحالة .

قال : ان الصفات التي يطلبها صاحبك هذا لا تجتمع في انسان إلا إذا كان من الملائكة الأطهار أو من عباد الله الأخيار ، قلت : والصفات التي تطلبها أنت هل تجتمع في فتاة إلا ان كانت من الحور العين أو من الكـواكب الأتراب في عليين ؟ .





البعث

كانت هذه أول مرة يركب فيها فتانا البحر ، وأول مرة يغادر فيها بلاده هذه إلى بلاد بعيدة نائية ، فهو لم يكن يعرف البحر إلا في هذا الشاطىء الممتد تجاه بلدة « جدة » هذا الشاطىء العجيب الذي يحيط بالمدينة من الجنوب والغرب والذي يقترب حتى يحاذي السور ويبتعد حتى لا يدركه الراجل إلا بعد جهد كبير وهو لم يكن يعرف هذه السفن إلا حينما كان يذهب إليها أيام الأعياد ليقضي فيها ساعة أو بعض ساعة ، يوماً أو بعض يوم ، إن بعدت به الشقة وطالت الرحلة . ولعله لم يكن ليتاح له ذلك كثيراً فكم كانت فرحة قلبه بهذه الرحلة البعيدة الممعنة في البعد ، إنه سعيد حقاً بهذه الرحلة الطويلة وبكل ما فيها ، بالبعد عن جدة، وركوب البحر ، وبالمتعة فوق ظهر السفينة الكبيرة « رضواني » ، وبهذه الموانىء والمدن الكثيرة التي يسمع أسماءها كثيراً من كل من ركب البحر قبله ، وتمتع بما في هذه الرحلات من لذة وطرافة وتنوع .

ولكن أكان هذا شعور من حوله من الأهل والأصدقاء ، من مودعيه في هذا القارب البخاري الزاخر ؟ .

كان الناظر إلى هذه الوجوه يشعر بأنها تفرق من التعبير عن شيء في النفس ، وكان الممعن النظر يدرك أن هذه القلوب تهجس بأحاديث هامسة تنطوي على كثير من الحسرة ، وكثير من الإشفاق ولعل البعض أو الأكثرين من هؤلاء الصحابة والقرابة كان يخشى أن تكون هذه الرحلة لهذا الفتى رحلته الأخيرة فلا تراه العين

بعد من قريب أو بعيد ، فقد كان الفتى مريضاً ، ممعوداً ، وكانت هذه الصفرة الجميلة تكسو وجهه بإهابها الذهبي الساهم ، وكانت عيناه ذابلتين متكسرتين ، ولم يكن لفرحته ونشاطه المستوفز ، وحيويته المتجلية أن تخفي كل هذه الأعراض على العين البصيرة والنظر النفاذ .

ولكن أكان الفتى يفكر فيما يفكر فيه أهلوه وصحابته ؟ أكان يشفق إشفاقهم ويتحسر حسرتهم ؟ أم كان منشغلا عن ذلك منصرفا عنه ؟

نعم كان الفتى منصرفاً عن كل هذا إلى ما ينتظره من متاع كثير فيه للعين قرة ، وللقلب مسرة ، وللنفس آمال وطماح .

لم يكن يعنيه من أمر صحته شيء ، ولم يكن يعنيه من أمر نفسه شيء ، بل لم يكن يعنيه شيء في هذه الحياة ـ كما كان دائماً ـ سوى أن يلهو بالساعة التي يعيشها ، فهو يحب اللهو والضحك ، وهو يحرص على المتاع بالحياة والتذاذها ، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من أسباب المتاع واللهو والسرور . لا يبالي أكان هذا المتاع حلالا أم حراماً ، ولا يعني بأن تكون هذه المسرة بريئة أو منكرة ، وأن يكون هذا اللهو مقبولا أو ممجوجاً ، لا يأبه لشيء ، ولا يحفل بشيء ، طبيعة منطلقة من كل قيد إلا قيد اللهو والمتاع إذا صح أن يكون للهو قيد وللمتاع ضوابط أو حدود .

ولهذا أسرف على نفسه في كل شيء ، أسرف في لهوه ومتاعه ، وسهره ولذته ، حتى فنيت صحته وحتى آذن شبابه الريق النضر بالانحلال ، وهو لم يتجاوز العشرين ، واخترمته العلة وهو في أوج شبابه ، وفي جمال فتوته ، واكتمال حيويته ، وتسلل إليه الداء وهو الفتى المدلل الجميل .

وأدرك هذا من حوله فاهتموا لأمره وطلبوا له البرء والطب حيثما أمكن أن يتاح ذلك في الحجاز ، في جدة وفي الطائف والمدينة ، ولكن أنَّى لهذا الفتى الذي كأنما ركب الإعصار في طبعه أن يهدأ ، وأنَّى لهذا الجسم الناحل أن يستريح وهو المولع بالسهر ، الكلف باللهو ، غير المحتفل بشيء اسمه دواء أو راحة .

لهذا فكّر من يقوم على أمره في أن يرسل إلى مستشفى من هذه المستشفيات الكبيرة التي تقوم في ريف الهند الساحر ليكون هناك تحت رعاية الأطباء ، وتحت

النظام الصحي الدقيق . ولهذا حزم الأمر على السفر ، وتم هذا سريعاً ، وسريعاً جداً أكثر مما كان ينتظر الفتى أو يقدر ، فقد عاد من الطائف ، وما هو إلا عصر يوم حتى قيل له انك مسافر غداً ، وما كان ضحى اليوم الثاني حتى كان في هذا القارب البخاري ومن حوله هؤلاء الأصدقاء والأهلون ، ينظرون إليه ويطوون النفس على هم مقيم وحسرة لاذعة ، وكمد يظهر في هذه الوجوه الباهتة ، والأبصار الذاهلة ، والأطراف المرتجفة . وكان فتانا - كما سبق القول - في معزل عن كل هذا ، يتحرك كأنما ركب في أعصابه إعصار ، ويداعب هذا بكلمة ، ويرشق هذا بنكتة ، والجميع يتظاهرون بالضحك والسرور وهو يضحك ملء قلبه وجسمه كأنما هو عروس في موكب عرسه ، وكأنما هو ينتظر أن يزف إلى عروسه في هذه الساعات القلائل الباقية من هذا النهار .

وأخيراً ، وضع الفتى في غرفته من الباخرة وانصرف المودعون من الأهل والأصدقاء بعد أن أوسعوه لثماً وتقبيلاً ، وعناقاً حاراً ، ودعوات صادقة نبيلة ، وبعد أن أوسعهم ضحكاً وسروراً ولوعةً ودموعاً ، وخلا الفتى إلى نفسه في هذه السفينة الكبيرة بعض الوقت ، ولكن حركته الدائمة وحيويته الدافقة ، وتطلبه للمتاع ، كل هذا أبى عليه أن يسكن في هذه الغرفة الجديدة عليه ، بسريرها الضيق ، وبما فيها من تحف جديدة لا يعرفها إلا في بيوت الغربيين في جدة ، هذه المروحة الكهربائية التي يدير مفتاحها فتنطلق بهواء قوي عنيف يبدد الحر في هذه الحجرة المتناهية في الضيق المغلقة كأنها صندوق ، هذا الجرس الذي تضغط عليه فلا تمضي ثوان إلا ويطرق الباب عليه - ندل - يسأل عما يطلب ليجيب طلبه ، هذا النور الكهربيّ الذي يفتحه فإذا الغرفة تموج في بحر من الضوء الساطع الجميل ، هذا المغسل الأنيق الذي ينطلق منه الماء بارداً عذباً زلالاً ، إلى غير هذا وذاك من الطرائف التي تعد في بيت هذا الفتى حلماً من الأحلام فإذا بها الآن حقائق رخيصة مبذولة .

عبث الفتى بكل هذا بعض الوقت وانطلق من هذه الغرفة ولعله لم يوصدها فلم يكن الإحكام والإيصاد من طبعه ، ولعله نسي صنبور الماء مفتوحاً ، ولعل صنبور الماء ملأ الحوض وسال في الغرفة ، ولعله ترك المروحة تدور ، والنور مشتعلاً فلم يكن لكل هذا شأن يعنيه أو يحفل به ، فلينطلق الماء ، وليشتعل النور ، ولتدر المروحة ما شاءت أن تدور فليس هو مكلفاً أو حافلاً بما يحبس أو ينطلق ، وما

يشتعل أو ينطفىء ، وما يقف أو يدور . إنما هو معني باللهو حيث كان ، مشغول بالمتاع أنى وجد ، منصرف إلى السرور يتطلبه ، وإلى الضحك يتصيده ، وإلى الجديد يستكشفه ، فما له ولهذه الأمور .

ـ ٢ ـ

ترك أسامة ـ فهذا اسمه ـ غرفته في الباخرة وانطلق إلى ظهرها في خفة ومرح ، ووقف على الحاجز مطلاً على الزوارق البخارية والشراعية المحيطة بالباخرة والتي تنقل الركاب والمسافرين ، وتعود بما بقي في الباخرة من بضائع إلى المدينة ، واستمع مسروراً إلى جلبة البحارة ولغطهم ، ولم يطل النظر إلى هذه السفن الشراعية فقد كان عليماً بها خبيراً بأمرها ، فقد كانت له فيها رحلات وجولات فطالما نقلته وصحبه إلى البواخر التي ترسو في الميناء ، أو خرجت بهم في « سرحة » لصيد الحوت في الليالي القمرية الجميلة ، وطالما لعب الهواء بهم وبهذه السفينة التي يسميها أهل جدة أسماء عديدة مختلفة بحسب أوضاعها وأحجامها ـ من سنبوك ، إلى بوت ، إلى ناوري ـ إلى آخر هذه الأسماء الكثيرة . وطالما ذهب بها ـ إلى السواعي ـ وهي السفن الشراعية الأكبر حجماً والتي تقف بعيداً عن الميناء في مرسى مخصوص ، كما يبتعد مرسى البواخر عن الميناء كذلك ، ويسلك له هذا الطريق الطويل المتعرج المليء بالصخور المرجانية التي يخشى منها على هذه الزوارق الصغيرة فجعلت لها علامات في البحر ليتجنبها السالكون .

لم يطل النظر إلى كل هذا ، ولكنه نظر إلى كل ذلك مسروراً بأنه سيفارقه إلى حياة جديدة ووجوه جديدة ومدن جديدة ، فما أكثر شغفه بالجديد ، وما أحبه إلى قلبه وأحلاه .

وسار فتانا على ظهر السفينة مرحاً فرحاً كأنما أُطلق من عقال يقفز في فرحة الطفل وحرارته ، ويتوثب توثب الظبي الطليق ، ويتنقل تنقل الطير فهو تارة فوق ظهر السفينة وطوراً في جوفها ، وحيناً في أعلى الباخرة ، وساعة في موضع الماكينة ، أو في مخزن البضائع ، وهكذا ظل متنقلا حتى شعر بالتعب والإعياء فاستلقى على كرسيّ من هذه الكراسي الطويلة المبثوثة على ظهر السفينة وأطلق نظره في البحر الأزرق الممتد ، وفي السماء الصافية المشرقة التي تلتقي بالماء في نهاية الأفق ، أو في امتداد البصر فلا يكون الفارق بينهما إلا خيطاً ضئيلاً كأنه الصراط فيما قرأ فتانا في

كتب التفسير والحديث .

وأخيراً صفّرت الباخرة صفيراً طويلاً مزعجاً فإذا من بقي فيها من أهل جدة ، من البحارة والمودعين ، والتجار وغيرهم يهرول إلى هذه الزوارق القليلة الباقية في البحر ، وإذا بهذه الزوارق تنطلق بركابها إلى المدينة ، وما هي إلا بعض ساعة حتى بدأت حركة السفر فرفعت السلاسل والأثقال التي تربط السفينة بالمرسى ورُفع السلم واستدارت الباخرة دورة بطيئة واستدبرت جدة وما حولها واستقبلت الخضم ، وأخذت تغادر هذه المياه الممتلئة بالصخور متئدة في سيرها متعرجة مبطئة ، وكان فتانا يرقب كل هذا بعين فيها طرافة الجديد ، وقلب فيه لذة النقلة والارتحال ، ونظر إلى المدينة التي عرف كل شبر فيها وكل بيت ، وكل حانوت ، وكل رجل وكل شاب ، وكل شيخ . المدينة التي عرفها طفلاً وصبياً وغلاماً وفتى ينهد إلى الشباب ، فلم يتحرك قلبه بالحزن لفراقها ، ولم تهتزّ نفسه للابتعاد عنها ، ولكنه تذكر شخصاً واحداً عزيزاً عليه في هذه الساعة التي أخذت معالم المدينة ومبانيها تتضاءل في عينيه وتذوب كما يذوب قرص الشمس في قاع البحر ، أو كما يذوب الزبد في أعقاب الموج ، تذكر شخصاً واحداً فحسب هو والدته الحزينة التي تركها تنعي فراقه ، والدته الحزينة التي لم يكن لها من أمل إلا هو ، والتي ضنت به فيما مضى على السفر للعلم حينما طلب عمه أن يسافر ليتعلم ، ولم تضن به الآن على السفر للشفاء والبرء ، ولكنها فارقته حزينة يمزق الحزن قلبها تمزيقاً ، تذكر الآن كيف كانت أيامها الأخيرة حينما علمت بسفره كلها بكاء ولوعة ، وكلها حسرة وحزنا ، وتذكر كيف ودعته وكيف أوسعته لثماً وتقبيلاً ، وبكاء وعويلاً حتى بللت دموعها وجهه وخده وشفتيه ، وكيف أغمي عليها أخيراً فلم تره حينما فارقها مسرعاً لا يلوي على شيء ولا ينتظر شيئاً . وهنا ذرفت عينه دمعة وفاء لهذه الوالدة الحزينة ، ولهذه الأم الحنون ، ولكن هذا لم يطل به كثيراً فانتقل ذهنه إلى والده الشيخ الذي كان فيما يرى هو سبب بلائه ونكبته ، فقد كانت حياة أسرته حياة حب وبر ومحبة وتعاطف إلى أن جاءت الساعة التي دبّ فيها الشجار بين والده ووالدته فطلق الرجل زوجته ومن يومئذ حل الحزن وحلت الكآبة في ذلك البيت محل الحب والتعاطف والفرح والسرور .

لم يأسف على فراق والده ، وإن كان يدرك أن والده كان كثير الأسف

لفراقه ، ولكنه لم يكن ليظهر اللوعة كما تظهرها والدته ، ولم يكن ليبدي الحزن كما تبديه أمه فقد كان أبوه جلداً صابراً ، وكان رزيناً وقوراً ، وكان هذا أخلق به وبوقاره وسنه ، ورجولته ، ولكن أباه دعا له دعاء حاراً وشيعه بهذه الدعوات الطيبات ، وأوصاه بألّا يترك الصلاة ، ولا القراءة كل يوم ، وسلمه مصحفاً صغيراً ليحتفظ به في هذا السفر الذي لم يكن يعرف مداه .

لم يأسف على فراق والده كثيراً . ومرت ذكراه بنفسه كما تمر ذكرى بعيدة في ذهن مشغول !! ولم يذكر بعد هذا أحداً بعينه ، ولكنه تذكر جموع الأصدقاء ، والأخلاء والاخوة والأعمام والأخوال والقرابة وودعهم بهزة ادكار من رأسه وبسمة عابرة من شفتيه لم تلبث أن ذابت هي الأخرى ، وحلت محلها الحركة والنشاط . وأخيراً غابت المدينة كلها عن عينيه وبدت سلسلة الجبال الصغيرة تظهر فيما بقي من آثار جدة ومعالمها ، فانصرف عن هذا كله إلى غرفته بالسفينة وأخذ يرتب حقائبه وأمتعته بها ، ولكن هذا لم يطل به كذلك فقد قرع الباب قرعة رقيقة فانثنى فإذا خادم من هؤلاء الخدم الكثيرين يدعوه إلى الغداء في صالون الباخرة فقد آن للسفر أن يتناولوا غداءهم ، وكان صاحبنا لم يستمع إلى هذا الجرس الذي انطلق يدعو السفر إلى هذه المائدة السخية في البحر ، ولعله استمع إليه ولكنه لم يعبأ به فأنَّى له أن يعرف هذا وهو لم يألف بعدْ هذه الحياة ولم يعرف عنها إلا القليل .

- ٣ -

كانت مائدة الطعام بالسفينة مرتبةً ترتيباً لم يعهده فتانا من قبل إلا في الولائم الكبيرة التي كانت تقام في البيوت الكبيرة في جدة بعض الأحايين ، والتي كان يذهب إليها مدعواً أو متطلعاً ، كان الطعام على مائدة مستطيلة صفت من حولها الكراسي الجلديّة الأنيقة ، وصف على المائدة كثير من الأطباق الصينية النظيفة ، وعدد كثير فيما رأى من الملاعق والشوك والسكاكين والأكواب والمناشف إلى غير ذلك من أدوات المائدة وزينتها ، وارتبك الفتى قليلاً فقد أدرك لأول وهلة أنه لا يحسن الأكل بهذه الطريقة الافرنجية ، وأنه كان يتكلّف لذلك تكلفاً إن اضطر إلى الجلوس إلى مائدة من هذا النوع ، وتذكر الآن أن صديقاً له أوصاه بأن يأكل في غرفته ، ولكنه كان قد نسي هذا وكان محله في المائدة خالياً ، وكان كرسيه يدعوه إلى الجلوس فجلس . وكان جلوسه وارتباكه وملابسه العربية وتأخره عن القدوم إلى

حجرة الطعام كل هذا كان موضع التفات الطاعمين وسخرهم ، ولعل ابتسامات مكتومة ظهرت على بعض الوجوه ، أو امتعاضاً بسيطاً لمح في بعض السمات ، ولعل هذا حزّ في نفس الفتى بعض الشيء ، ولكنه على أي حال قد اضطر إلى الجلوس فجلس .

كان يتصدر مائدة الطعام ـ قائد الباخرة ـ وكان إلى جانبه بعض الضباط ، وبعض الأوربيين الذين كانوا يسافرون إلى الهند ، وكان فتانا من ركاب الدرجة الأولى فكان لا بد وأن يدعى إلى هذه المائدة ، وأن يجلس إليها . فجلس بين هؤلاء الفرنجة الذين كانوا في حللهم الأوربية وفي بزاتهم الضيقة وجلس هو في ملابسه العربية الفضفاضة غريباً عنهم في كل شيء .

ولم يتلفت إليه الطاعمون بعدما بدا من سخرهم وامتعاضهم في أول الأمر فانصرفوا إلى طعامهم وانصرف هو إلى طعامه ، وإن كان لم يأخذ منه بحظ موفور ، فقد كان مرتبكاً بادي الارتباك ، وكانت ورطته ظاهرة فهو لا يعرف كيف يدير هذه الأدوات ولا يحذق الأكل بها كما يفعل هؤلاء الأوربيون الذين مرنوا على ذلك وحذقوه .

كان الحديث على المائدة بالإنجليزية التي يعرف فتانا طرفاً منها والتي كانت تبلغ معرفته إياها إلى درجة يفهم بها الحديث مجملا وإن كان لا يحسن الإجابة عليه .

قال الكابتن ـ وكأنما كان يعتذر إلى صحابته من الأوربيين ـ : هذا فتى عربي أوصاني به الطبيب ـ يقصد طبيب الكرنتينة بجدة ـ وكان للفتى وعائلته به علاقة .

فقال أحد الطاعمين : هؤلاء العرب همج ، انظر إليه ، إنه لايعرف كيف يأكل !! لقد ألفوا أن يأكلوا بأيديهم ، ويسيل الطعام من أفواههم حتى يلوث ملابسهم القذرة .

قال الثالث : أمة جاهلة متوحشة !! .. وكان الفتى يفهم عنهم بعض الحديث ، ولكنه لم يكن يفهم كل شيء فزاد ارتباكه وزادت حيرته ، وانقلب هذا الارتباك وهذه الحيرة إلى ألم بادٍ ، فأمسك المتكلمون عن الكلام في هذا دون احتفال ظاهر وبدأوا يتحدثون في موضوعات أخرى لا تعني فتانا شيئاً . ولا يدري الفتى

لماذا أمسكوا عن الكلام وقد بدأوه ، أأدركوا فهمه لما يدور ، وهم لا يعرفون عنه أنه يفهم لغتهم ، أم أحسوا أنه أدرك بحسه موضوع الحديث فأداروه إلى شأن آخر من شؤون الكلام؟ على أية حال لم يهتم الفتى بهذا وإنما وجه كل همه إلى أن يفارق هذه المائدة الثقيلة على ألّا يعود إليها مرة أخرى ، وأخيراً تم له ما أراد فقد آن للطاعمين أن يفرغوا من طعامهم وآن للمائدة أن يقوم عنها القوم وأن ينصرفوا كل إلى حيث يريد ، وعاد الفتى إلى غرفته مكدوداً بعض الشيء ، ولكنه كان على أي حال فرحاً بهذا الانطلاق .

كانت هذه أول صدمة لقيها الفتى في هذا العالم الجديد عليه ، ولكنه لم يعبأ بها كثيراً ، ولم يفكر فيها كثيراً ، فقد كانت طريقته العملية أن يعالج كل شيء علاجاً يضمن له الراحة والحرية . أليس الجلوس إلى هذه المائدة ومع هؤلاء القوم هو الذي يربكه ويثقل على نفسه؟ فما الذي يضطره إلى هذا وفي وسعة ألّا يجلس مرة أخرى إلى تلك المائدة ، ولا إلى أولئك السفر . وكان هذا أول ما عمله ، فقد دعا الخادم وأخبره أنه يود أن يتناول الطعام بمفرده في غرفته تلك من السفينة فهز الخادم رأسه هزة طاعة وإذعان ، وانتهى بهذا ما يضايق الفتى ويثقل عليه . وإن كان قد ترك في نفسه آثار كره لهؤلاء الأوربيين لم يكن يتبينها من قبل أو يعهدها في نفسه التي لا تكره أو تحب .

- ٤ -

كان الفتى يقضي أيامه في السفينة موزعة بين السير على ظهرها ، وتفقد كل ثنية وغرفة فيها ، أو الاستلقاء على كرسي من هذه الكراسي فوق السطح يطيل النظر إلى الماء الأزرق وإلى الموج المتدافع إن كان الهواء رائقاً والجو صفواً فيقضي ما شاء الله أن يقضي من وقت في هذه الجلسة المريحة اللذيذة . وكان أحب مناظر البحر إليه حينما تكون السفينة في وسط البحر فلا يرى الناظر - من أي جهة نظر - إلا السماء والماء، وإلا هذا الموج المتلاطم ينطح السفينة في قرنها وربما طار منه رشاش إلى من كان على ظهرها، وكان يعجبه كثيراً هذا الالتقاء العجيب بين السماء والماء في هذه الزرقة الصافية الجميلة المحببة إلى نفسه على الدوام.

وربما جلس في بعض الأحيان إلى ضباط الباخرة من الهنود وخدمها من

اليمنيين وأهل الجنوب ليتحدث إليهم ، فيمطرهم بأسئلة عن البحر والسفن ، وعن رحلاتهم والمدن التي يرونها ، حديثاً لا يقصد منه الفائدة بقدر ما يرمي به إلى اللذة وتزجية الفراغ . وربما لعب معهم الورق أو بعض ألعاب التسلية الأخرى ، وقليلاً ما كان يجلس إلى غرفته يقرأ رغم كثرة ما أهدي إليه من كتب حين سفره بقصد القراءة وتزجية الوقت بها في هذه الرحلة الطويلة .

وربما ذهب بعض الأحيان ـ وهذا غالباً ما يكون في الليل ـ إلى صالون الجلوس بالباخرة أو إلى ما يسميه الأوربيون غرفة التدخين فاستمع إلى الراديو ، ولكنه لم يكن يستمع إلا إلى الغناء فما له بأخبار العالم شأن ، ولا له بهذه المحاضرات المتنوعة طاقة أو تفكير ، ولكن فرحته بالاستماع إلى الراديو لم تكن تتاح له دائماً ، فقد كانت غرفة التدخين ممتلئة غالباً بالأوربيين فكان يذهب إليها في وقت العشاء الذي يتناوله مسرعاً في غرفته ، والذي يقضي فيه هؤلاء الأوربيون ساعة وبعض الساعة ، والذي يحتفلون له كثيراً فيبدون في ملابس سوداء مرتبة أنيقة ، أما هو فكان لا يعنى بكل هذا ولا يحفل به .

وكان ربما اختلط بعض الأحيان بركاب الباخرة القليلين ـ في الدرجة الثالثة ـ من الهنود العائدين إلى أوطانهم وكان هؤلاء قلة ، ولم يكن هو يميل إلى الاتصال بهم لأنه لا يعرف لغتهم ، وإن كان يعجب من أمرهم كثيراً وربما رثى لفقرهم وخصاصتهم .

كان فتانا ـ إذاً ـ يقضي أيامه على هذا النمط فإذا شعر بالتعب أو الحاجة إلى النوم ذهب إلى سريره فاستلقى عليه ونام ما شاء أن ينام ، وكان طعامه يأتيه في غرفته في مواعيده المنظمة ، وكان يأخذ شاي العصر فوق سطح الباخرة جالساً إلى كرسيه الطويل ، مديماً النظر إلى البحر والموج ، منصرفاً عن كل شيء إلى التفكير في هؤلاء البحارة الذين يقضون حياتهم على الدوام بين السماء والماء .

في عصر يوم من هذه الأيام بينما كان الفتى يتناول الشاي على ظهر السفينة ، مطلقاً أفكاره تسبح في هذا الجو الرائق وفي تلك الزرقة الصافية بين السماء والماء ، مطيلاً النظر إلى الموج المتدافع المتلاطم ، لم يشعر الفتى إلا ويد تهزه في رفق ، وصوت رزين يناديه : ـ عرب صاحب ـ فالتفت فزعاً فإذا شيخ هندي وقور له لحية

كبيرة تتدلى إلى صدره ، وتحيط برأسه عمامة من الشاش الأبيض كأنها طبق وفي يد الرجل مسبحة كبيرة ، وهو يرتدي ملابس كانت بيضاء في الأصل ، ولكنها الآن قد حال لونها فأصبحت إلى لون التراب أقرب منها إلى اللون الأبيض الناصع ، وهكذا كان الرجل صورة لهؤلاء الهنود الذين يراهم الفتى دائماً في موسم الحج والذين كان يضحك من منظرهم في سره ولكنه لم يكن يعبأ بشأنهم في قليل أو كثير .

أراد الفتى أن يعبث بهذا الشيخ وأن يضحك منه استجابة لنفسيته اللاهية العابثة ، ولكن شيئاً في عيني الشيخ رد الفتى عن عبثه فأمسك وفي نفسه لهذا الرجل من الهيبة ما يشبه الخوف والرعدة ، فقد كان ينبعث من عيني الرجل رغم هيئته الزرية تيار قوي دافق ، كأنه وميض برق في ليلة داجية .

أمسك الفتى عن عبثه متهيباً وما لبث أن هم واقفاً ودعا الشيخ إلى الجلوس فجلس وقدم له كوباً من الشاي وتلطف به ما أمكنه التلطف . قال الشيخ ـ في لغة عربية فصيحة كانت موضع عجب فتانا ودهشته ـ :

أنت عربي من مكة ؟

قال الفتى : نعم إنني عربي ولكني من جدة ، ومكة وجدة سواء .

قال الشيخ : أنت على كل حال من بلد الإسلام وانه ليسرني أن أدعوك الليلة إلى قراءة المولد النبوي الشريف في محلنا بالسفينة ، بالعنبر الداخلي ، فالليلة ليلة المولد الشريف ونحن سنحتفل بها هنا مع كل من في هذه الباخرة من المسلمين سواء أكانوا موظفين أم مسافرين وقد أخبرني شمس الدين ـ وهو أحد الخدم الهنود الذي يقوم على خدمتك ـ بأنك عربي من مكة فسررت بهذا .

قال الفتى : ـ وقد عاوده العبث ـ ولكن كيف تقرأون المولد في السفينة ؟

قال الشيخ : إنا سنقرأه كما قلت لك وستحضر معنا لتشاركنا قراءته والاستماع إليه . وكانت لهجة الشيخ حاسمة فلم يملك الفتى إلا أن يجيب بالطاعة والقبول .

وذهب الشيخ من حيث أتى ، وذهل الفتى عن نفسه قليلاً يفكر في هذا الرجل الذي هبط عليه في هذه السفينة من حيث لا يدري ، والذي كان خليقاً أن

يعبث به طول هذه الرحلة لولا أنه مضطر إلى احترامه وتوقيره ، مضطر إلى أخذ نفسه أمامه بضروب شتى من التهيب والحذر .

لو ترك الفتى لنفسه لما ذهب إلى المولد ولا قرأه ، ولا استمع إليه ، فهو يذكر أنه كان يفر من الاستماع إلى المولد كلما دعاه والده إلى الاستماع إليه ، وهو يذكر أنه كان ينفر من هذه الاجتماعات الطويلة الكبيرة التي يستمع فيها الناس إلى هؤلاء الشيوخ الذين يرتلون الموالد النبوية ، التي تتخللها قصائد المديح ، والتي يتغنون فيها تغنياً لم يكن ليستسيغه ، أو يقبله وهو قد كان يثقل عليه هذا القيام والقعود ، وهذه الصلوات والتسابيح التي كان يشترك فيها الحاضرون وينغّمونها تنغيماً ، فكيف به الآن وهذه الحفلات تطارده هنا في سفينة في البحر لا يمكن الفرار منها أو البعد عنها ؟ وأخيراً قال الفتى لنفسه : فلأذهب ولو على سبيل العلم بالشيء فإن من الطريف ولا شك أن أستمع إلى هذا الشيخ أو إلى غيره يقرأ المولد الشريف في سفينة أوربية في وسط البحر الأحمر .

وهكذا كان ، فما غربت الشمس حتى سمع الفتى أذاناً في السفينة فذهب إلى حيث الصوت فإذا صاحبه الشيخ يؤذن على حرف يجهر بالصوت يدعو المسلمين إلى الصلاة .

توضأ الفتى لأول مرة في هذه السفينة وذهب إلى حيث الأذان فوجد الشيخ ومعه بضعة نفر من مسلمي الهنود المنقطعين بمكة من الفقراء الذين تعيدهم حكومتهم إلى وطنهم بعد انقضاء موسم الحج وبعد ألّا يبقي لهم من المال ما يهيء لهم سبيل العودة إلى ديارهم ، وما لبث أن توافد على هذه الجماعة كثير من خدم الباخرة وموظفيها من المسلمين .

أقام الشيخ الصلاة ، ودعا الفتى إلى أن يتقدم للإمامة فامتنع فألح عليه الشيخ فلم يجد من سبيل إلا الاعتذار بمرضه فتقدم الشيخ وصلى بالجماعة ثم جلس الشيخ وتحلقت الجماعة حوله ، ودعا الفتى مرة أخرى إلى البدء بالتلاوة فاعتذر فما كان هو يحفظ المولد ، ولا يتقن قراءته ، ولا يحسن شيئاً من هذه القصائد الطويلة التي تتخلله ،وابتدأ الشيخ في القراءة من « مولد البرزنجي » بعد أن أخرج من صندوق لديه لاحظ الفتى أنه كان مملوءاً بالكتب رسالة مطبوعة ، بها هذا المولد

واستمع الفتى إلى القراءة ، واضطر إلى المشاركة فيها فقد خجل من كثرة الاعتذار ، وتناوب القراءة مع الشيخ تعطيرة ، وتعطيرة ، أو فصلاً وفصلاً ، ولكن شعوره هذه المرة بالمولد وأثره ، وبهذا الاجتماع وخصائصه كان شعور فهم وتدبر وتفكير ، ولم يكن لشعور الضيق والتثاقل الذي كان يخامره حينما كان يحضر هذه الاجتماعات في وطنه أي أثر ، أكان هذا لقوة العقيدة في نفوس الشيخ والحاضرين ، هذه العقيدة التي بلغ من قوتها أن تحيي ليلة المولد الشريف في عنبر من عنابر سفينة أوربية تمخر البحر ، أم كان لما سبق ذلك من حادثة غرفة المائدة وسخر الأوربيين وامتعاضهم من الفتى أثر في ذلك ؟ أياً كانت الحالة فقد أثرت في نفس الفتى روح الشيخ وصفاء عقيدته ، وقوة إيمانه فازداد له إكباراً وحباً ، وانفضّ المجلس بعد الفراغ من تلاوة المولد وصلاة العشاء وذهب كل إلى سبيله ، واستبقى الشيخ الفتى لديه .

قال الشيخ ـ بعد أن خلا المجلس ـ : أنت مسافر إلى الهند أم إلى عدن ؟ ولماذا تريد السفر ؟

حدث الفتى الشيخ عن مرضه وعن وجهته ، وتحدث الشيخ بدوره إلى الفتى فعرف إليه نفسه وطرفاً من تاريخه ، فاسمه ـ أكبر علي ـ من رانقون ، وهو قد قدم إلى الحج كما يقدم إليه سنوياً ، ولكن نقوده قصرت أن تعود به فتنظر حتى سافر في هذه الباخرة التي تنقل الفقراء إلى بلادهم دون نفقة ، وهو رجل درس العربية وعلوم الدين وتفقه فيها ، ولهذا فهو لا ينقطع عن الحج سنوياً ، وهو يعمل إمام المسجد في بلده ويقوم بوظيفة المأذون والمفتي وما شاء الله أن يقوم به أمثاله من هذه الشؤ ون في ديارهم البعيدة .

حدث الشيخ الفتى كثيراً عن بلاده ولكن حديثه لم يكن منصباً على النواحي التي يتشوق الفتى إلى معرفتها ويرتاح إلى الحديث عنها ، بل كان الحديث خاصاً بالإسلام في الهند والمسلمين والهندوس والوثنيين الهنود الذين تنتشر بينهم دعايات التبشير المسيحية ، والذين يتغلغل المبشرون المسيحيون بينهم فيدخلونهم في الدين المسيحي ، وينصِّرونهم .

كان الشيخ يذكر هذا وهو يتحرق أسى ولوعة ، وقال في ما قاله : ان واجب المسلمين جميعاً أن تكون منهم بعثات تبشيرية لهداية هؤلاء القوم إلى الدين

الإسلامي الحنيف، فهم أولى بهذا وأجدر به ، ولكن مما يؤسف له أن المبشرين المسيحيين يحاولون أن يدخلوا المسلمين في دينهم ويردوهم عن الهدى بعد إذ اهتدوا إليه . ثم قال : إن بلادكم - يعني الحجاز - هي بلاد الدعوة الإسلامية الأولى ومهدها ومبعثها ، ثم هي البلاد الإسلامية الوحيدة التي ما زال الإسلام فيها بخير ، البلاد التي لا تضم إلا المسلمين والمسلمين فقط من كل جنس ومن كل قبيل فأنتم الأجدر بهذه الدعوة والأحق بها .

انكم تبعثون إلى بلادنا في كل عام مئات ومئات يدعون الناس إلى الحج ، ولكنا نريد أن تبعثوا إلينا إلى جانب هذه المئات عشرات فقط يدعون الناس إلى الإسلام ، الذي ما كان الحج إلا ركناً من أركانه فقط فهلا فكرتم في هذا وأعددتم له العدة وأخذتم بسبيله ؟

لا أريد أن أحدثك عما يفعله أبناء قومك هؤلاء الداعون إلى الحج أو على الأصح ما يفعله بعضهم مما يخالف الآداب أو لا يليق بمكانتهم فلعلك تعلم طرفاً من هذا ، ولكني أود أن تدققوا كثيراً في اختيار هؤلاء الأشخاص الذين تبعثونهم إلينـا ، وقد علمت أنكم تبعثونهم إلى كل بلد إسلامي ، إلى مصر والشام وفلسطين والعراق وإيران وجاوة وقد كنتم تبعثونهم إلى تركيا والصومال والحبشة وأرتريا وإلى روسيا يوم أن كان فيها شيء اسمه الإسلام وإلى بخارى ، ولعل بعضكم ما زال يتسلل إلى هذه البلاد في صفة غير صفة الدعاية فإني أعلم أنكم تسعون جاهدين في جلب الحجاج إلى بلادكم ، ولكن الناس الذين يقومون على هذه الشؤون منكم ليسوا كلهم متحلّين بالصفات الحميدة . والدعوة إلى الحج هي من حقكم بل أراها واجباً عليكم ، واجباً دينياً لأنها استجابة لأمر الله تعالى حينما أمر خليله ابراهيم أن يؤذن للناس بالحج ، فهذا الأذان من خليل الله هو واجبكم الآن يا أهل مكة ومن جاورها من البلاد ، وواجب اقتصادي لأن بلادكم ما زالت مفتقرة إلى الحجاج وإلى ما يرد منهم على الدوام ، فبلادكم لم تقم إلا بالدين وعلى اسمه وستبقى معتزة بهذا الاسم ما بقي الدين، وقد ضمن الله له البقاء فواجبكم أن تعرفوا هذا وأن تعملوا له وتنظموا أمره . أرسلوا من شئتم للدعاية للحج ، ولكن لا تنسوا أن من واجبكم بل ان واجبكم الأول أن تدعوا إلى الله ورسوله ، وإلى دينه الحق لا المسلمين

فقط ، ولكن كل إنسان من كل دين ، فلتبعثوا إلى هذه البلاد الإسلامية إلى بلادنا وإلى جاوة والصين وتركيا وبخارى والحبشة ومصر وغيرها اناساً يدعون إلى الله وإلى الإسلام ، ليزداد المؤمنون بهذه الدعوة إيماناً ، وليؤمن بها ويحبها من لم يعرفها من قبل .

قال الفتى : إن ما تقوله أيها الشيخ هو الحق ، والحق كله ، ولكن هذا الواجب إن كان قسمه الأكبر على بلادنا فلا تنس أن البلاد الإسلامية كلها ، أو علماء المسلمين وحكومات الإسلام على الأصح ، لا بد أن تشترك في هذا الواجب ، وفي نشر هذه الدعوة والجهاد في سبيلها والبذل لها ، ان من ذكرت ممن يأتونكم ويفدون إليكم للدعوة إلى الحج وجلب الحجاج هم جميعاً أو أكثرهم من طبقة غير متعلمة ، بل ان أكثرهم ليسوا من بلادنا ؛ فهم من بلاد أخرى في الأصل ولعل أصلهم من الهند قبل أن يكونوا من الحجاز ، وقل مثل ذلك في أغلب الدعاة الذين يسافرون إلى بلاد أخرى ، فالدعاة لمصر لعلهم من المصريين أصلا ، ولجاوة من الجاويين أصلاً وهكذا ، وهم قد اختصوا في بلادنا بهذه الأعمال وتفرغوا لها تفرغاً تاماً، وحذقوها ، هؤلاء لا يعرفون الحج والدعوة إليه وإنما يعرفون الحجاج وما يرد منهم فقط ولكنهم على كل حال قد أصبحوا منا وحسبوا علينا ، ولكن الإسلام يا سيدي ملة واحدة والمسلمين أمة واحدة ، وبلادنا أفقر ما تكون إلى العلماء ، العلماء في الدين وفي غير الدين ، وأمامنا شوط طويل لا بد أن نقطعه لتخريج العلماء وإرسالهم إلى الدعوة في أنحاء العالم للإسلام والتبشير به ، وإنا لذلك فاعلون إن شاء الله .

لا نعرف كيف نطق الفتى بهذا ولا كيف وردت هذه الخواطر على ذهنه فانطلق بها لسانه وهو فيما نعرف حتى الآن بعيد عن أمثال ذلك ، ولعل لروح الشيخ وقوة عقيدته تأثيراً عظيماً في نفس الفتى أنطقه بهذا ، ولعل لما عرفه الفتى وهو في بلده عن فقر بلاده إلى العلماء دخلاً في هذه الإجابة ، فهو قد شهد مرة كيف أخذ أستاذ من أساتذة مدرسته في جدة أخذاً وعين في وظيفة من وظائف القضاء بعد عزل القاضي السابق ، ويذكر كذلك كيف عين شقيق أحد أصدقائه في وظيفة من وظائف القضاء في قرية نائية من قرى الشمال ، إلى أمثال هذه الحوادث التي تواردت إلى رأسه تباعاً ، كما يذكر الآن كيف أنه حينما كان صغيراً حدثاً كان أبوه

يصحبه معه إلى الجوامع ليحضر دروساً يلقيها بعض العلماء بعد صلاة العصر، وبعد العشاء، وبعد صلاة الصبح في هذه الجوامع المختلفة. ثم يذكر بعد أن انتهى هذا الطور، واستطاع الفتى أن يتخلص من أسر والده وجده ومن صحبتهما أنه ذهب مرة ومرة إلى المسجد فلم يجد ما كان يعهده من دروس، وهو يذكر كيف سمع جده يتحسر على الأيام الماضية التي كانت الجوامع فيها تكتظ بالمصلين وبالعلماء والدروس وغير ذلك.

لعل لهذا كله أكبر الأثر فيما نطق به الفتى وأجاب، وإن كان ليس ممن يحفلون بهذه الشؤون أو يفكرون فيها. على أية حال قد قال الفتى ما قاله وقد حمد لنفسه هذا القول حمداً ليس بقليل.

- ٥ -

أُتيح للفتى في هذه الرحلة أن يستمتع برؤية بعض السواحل التي يتردد اسمها كثيراً في وطنه، والتي يسمع عنها أشياء كثيرة لعل أغلبها يتصل بالتجارة والتجار، أكثر مما يتصل باللهو والمتاع، ولكن للجديد طرافته ولذته، على أي حال فقد رأى الفتى «عدن» وتجول في حدائق الشيخ عثمان ومتنزهاته، وأتيح له لأول مرة أن يرى بعض النساء السافرات مما لم يعهده في بلده، فهو لا يعرف النساء في بلاده إلا متحجبات يكسو أجسامهن هذا الحجاب الأسود الذي تختلف أصنافه، ولا تختلف الغاية منه، وحقاً انه كان يرى نساء الفرنجة في جدة سافرات في حللهن القصيرة الحريرية ولكنه يذكر جيداً أنه لم يستطع الجلوس إلى واحدة منهن أو تجاذب أطراف الحديث معها حتى بعد أن عرف طرفاً من الإنكليزية، بل هو يذكر أنه لم يجرؤ أن يتحدث إلى هؤلاء الفرنجة من الرجال بإنكليزيته الضعيفة الكليلة فقد كان أكره ما يكون إلى نفسه أن يبدو ضعيفاً أو متخاذلاً، أو محتاجاً إلى المعونة، بل انه ليذكر أنه لا يمارس حتى في الألعاب إلا اللعبة التي يتقنها فهو لا يطيق أن يكون موضع سخرية أو موضع رثاء.

أما في الشيخ عثمان فقد رأى نمطاً آخر من النساء، نساء يمنيات وفارسيات، ومن بلاد النوبة، وأعجبته عربيتهن المتخاذلة، التي هي خليط من اللهجات العربية والفارسية والنوبية، وراعه كثيراً جرأة هاته النسوة على الرجال، فقد كنّ من هؤلاء النسوة الشقيات اللاتي رمت بهن الأقدار ليكنّ سلعة للرجال، ولم يكن

لفتانا عهد بهذا النمط من النساء ، كما لم يكن له عهد بأمثال هذه المجالس التي أُتيح له أن يراها في الشيخ عثمان فقد دعاه أحد تجار عدن ، وكان يحمل له كتاب توصية ، إلى قضاء الليلة لديه وأقام حفلة راقصة اجتمع فيها إلى هاته النسوة وشهد رقصهن وغناء أهل عدن ومجالس تطريبهم ولهوهم ، ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن الفتى قد سرّ بذلك كثيراً ، وأن شعوره كان مزيجاً من السرور والدهشة والمرح .

ولكن ليلة اللهو والسرور قصيرة على كل حال فقد آن له أن يعود إلى السفينة ، وآن للسفينة أن تترك عدن والشيخ عثمان ومجلس اللهو والرقص والنساء .

رست الباخرة بعد هذا في ميناء المكلا ولكنها لم تقض به إلا سويعات أتيح للفتى فيها أن يتجول في هذا الميناء ولعل الفتى حمد لقائد الباخرة إسراعه بمغادرة هذا الميناء فلم يكن فيه ما يعجبه وهو بمقارنته إلى عدن ، بل إلى جدة ، يعتبر كأنه خال من الحياة .

وسر الفتى من زنجبار كما لم يسر من المكلا ولكن عدن كانت في رأيه أكثر بهجة وأفراحاً فإن ليلة الرقص في عدن لم تتكرر في زنجبار ، ولعل لسرعة سفر السفينة أثراً في هذا ، كما أن لجهل الفتى بالمدينة ومن فيها أثراً آخر ، إلا أن النظرة إليها في رأي العين أنها مدينة على شيء من الحضارة ، وليست كالمكلا تملأ النفس ضيقاً وحرجاً .

وهالَتْ الفتى عظمة مدينة بومباي التي شهد فيها من مظاهر الحضارة ما لم يعهده من قبل ، كانت المدينة في رأيه عظيمة لم ير أعظم منها ، فالترام الذي يجوس خلالها ، هذه العربات التي تسير على قضبان حديدية مثبتة في الأرض والتي يرتفع منها عمود طويل يتصل بسلك أو مأسورة من الرصاص الغليظ تقدح شرراً في بعض الأحيان لم يعرف كيف تسير ولا كيف تدور فهو يرى في هذا العمود شبهاً من المشاعل التي يحملها الرجال الذين يقومون على خدمة الحجاج في طريقهم إلى عرفات ومنى وغيرهما من طرق الحج . وهو كثير الدهشة لهذه العربات التي يجر بعضها بعضاً والتي يحتشد الناس فيها حشداً وتتقاطع خطوط سيرها واتجاهاتها ، وتمتلىء بالناس وتخلو منهم في دقائق قليلة ، حقاً انه لا يعلم من أين أتى هؤلاء

الناس جميعاً،ان هذا الزحام الذي شهده في المحطة لم يشهده من قبل إلا في المواكب العامة في بلده حينما يحتشد الناس لاستقبال ملك والترحيب بأمير ، أو الاشتراك في حفل عام كحفلة المحمل يوم أن كان المحمل شيئاً يذكر .

ثم هذه المحلات التجارية والبضائع المعروضة بالحوانيت في الواجهات الزجاجية من كل نوع ولون ، وهذه الشوارع الجميلة ، والميناء العظيم الممتلىء بالبواخر والمراكب التجارية والسفن ، وهذا الخليط العجيب المحتشد من الناس ، هذه البرانيط الكثيرة ، واللغط الكثير ، هذا الكلام باللغات الإنكليزية والهندية وغيرها من اللغات التي لا يعرفها ، وأخيراً ـ ولعله كان يجب أن نقول أولاً ـ هاته النسوة الأوربيات والهنديات وغيرهن في مختلف الأزياء يسرن بملابسهن الأوربية أو الوطنية سافرات جميلات وهذه الحياة المحتشدة ، وهذا القطار الذي تشبه كل عربة منه سفينة من السفن التي ترد إلى جدة كل أسبوع ، وهذه العربات الكثيرة التي تسير وراءه ، وهذا الصوت المزعج الذي ينبعث من جوفه قوياً مروعاً ، ثم هذه السرعة التي يسير بها كأنها العاصفة تجتاح كل من في طريقها . هنا ذكر الفتى ما كان يقرأه وهو في بلده عن النكبات التي تصورها الصحف لهذا القطر وعن ضحاياها والتي تنشر لها صوراً لم تكن تمثل في رأيه الآن إلا شيئاً بسيطاً من حقيقة الأمر .

أعجب الفتى بكل هذا وسره كثيراً التطلع إلى القصور الجميلة والشوارع المنسقة والبنايات المجهزة بكل الوسائل العصرية الجميلة المريحة ، ولم يدر أن ما رآه في بومباي ليس إلا جزءاً يسيراً مما سيراه في كراتشي وغيرها من المدن الجميلة العظيمة في هذه البلاد .

وآن للباخرة أن تبحر من بومباي وأن تصل إلى كراتشي فرأى الفتى من عظمة المدينة واتساعها واضطراب الأحياء وتنوع ألوان الحياة فيها فنوناً وفنوناً ، جعلته لا يرى في بومباى تلك العظمة التي رآها من قبل .

- ٦ -

قضى الفتى في كراتشي أسبوعاً لعله أكثر الأسابيع التي قضاها حتى الآن لذة ، وسروراً . فقد استقبلته على ظهر الباخرة جماعة من أهل وطنه الذين يعرفهم

ويعرفونه ، ونزل في بيت زينل بالهند وهو البيت الحجازي الأول في تلك المدينة العظيمة ، ولعله البيت الحجازي الأوحد فيها ، واستقبله الزينليون بما عهد فيهم من الحفاوة والإكرام وكانوا قد أُحيطوا بمقدمه خبراً فأرسلوا إليه من يستقبله ، وكان اللباس الحجازي الأصيل الذي يتمسك به هذا البيت وكل من فيه موضع دهشته العظيمة واحترامه في نفس الوقت . قضى الفتى أسبوعاً عرض فيه على ثلاثة من الأطباء الكبار ، سُئل من كل منهم عديداً من الأسئلة الدقيقة ، وفحص فيه مرضه فحصاً دقيقاً لم يعهده في الأطباء الذين عرفهم في بلده وكشف عليه بآلات لم يرها ولم يعرف عنها شيئاً، ولكنه استسلم لكل هذا راضياً مسروراً فإن فرحته بدخول هذه البلاد ، ورؤ يته لها ، واستمتاعه بما فيها حبب إليه كل شيء فيها حتى الطب والأطباء ، وهو بحكم طبيعته لا يتطلب الطب ، ولا يستمع إلى نصائح الأطباء .

لم يعط الفتى من الطبيب أي علاج في هذه المدة ولم يسأل هو عن العلاج أيضاً ، وكان الطبيب يتكلم الإنكليزية أحياناً ، والهندية أخرى مع مرافق الفتى ويترجم إلى الفتى أسئلة الطبيب فيجيب عليها فينقل رده إلى الطبيب ، ولكن المرافق لم يكن يترجم إلى الفتى ما يعلق به الطبيب على هذه الردود ، ولا هذا الحديث الطويل الذي دار بين المرافق والطبيب في آخر الأمر .

أُتيح للفتى في هذا الأسبوع أن يتجول في هذه المدينة العظيمة ، وأن يركب الترام الذي شهده في بومباى وأن يذهب إلى بعض الحدائق العامة في المدينة مساءً ، كما أُتيح له أن يشهد السينما لأول مرة في ذلك المساء .

كان كل شيء يشهده الفتى في هذه المدينة عجيباً في نظره ، فكان هذا الأسبوع الذي قضاه سلسلة من الأعاجيب لا ينتهي إعجابه بشيء أو عجبه منه ، حتى يبدأ شيء آخر يملأ نفسه إعجاباً وعجباً .

الحدائق الغناء ، والمسارح ، ودور السينما ، والملاهي العامة ، وحديقة الحيوان ، والميادين الجميلة بما فيها من حدائق ونافورات ، وتماثيل الشوارع الفسيحة المرصوفة النظيفة ، المحلات التجارية ، والبنايات الفخمة ، المطاعم ، والشواطىء والسفن والمركبات والسيارات ، القطار والمترو أو غير ذلك مما يحتشد في مدينة عظيمة كهذه المدينة ، النساء والرجال ، والحياة بكل أنواعها وفنونها ، وجمالها وحيويتها المتدفقة .

أين هذا كله من جدة وما فيها ، بل من أعظم مدينة في بلاده وما فيها ، عرف الفتى هنا لأول مرة معنى حب الناس لبلادهم وإكبارهم لها ، واهتمامهم بشأنها . فهذه الحياة الجميلة العظيمة تستحق الآن في رأيه أن يحياها الناس ، وأن يدافعوا عنها ، وأن يحبوها ويكلفوا بها ، ويحافظوا عليها خالصة من كل شائبة .

ما الحياة في بلده ، إلا رجوع إلى الوراء ، فالناس هناك فيما يرى الآن لا يعيشون ، وإنما يسيرون كالآلات في حلقة مفرغة لا مفر منها ، كل شيء فيها ككل شيء ، حياة كابية وطبيعة ميتة لا حسّ فيها ولا حياة .

وما له الآن يذكر بلده فينغص على نفسه هذه المتع الجميلة ، ولكن الشيء دائماً يحلو كلما قرن إلى ضده ، ودواعي الذكرى كثيرة ، فالبيت الذي ينزله حجازي من فرعه إلى قدمه يأكل أهله ألواناً حجازية ويلبس أهلوه ملابس حجازية أصيلة ، ويتكلمون فيما بينهم باللهجة العربية الحجازية ، وإن كانوا يقيمون في الهند ، ويتعاملون مع أهلها ويخالطونهم .

شهد الفتى رواية تمثيلية في مسرح من المسارح الكبرى في المدينة وأُتيح له أن يشهد عظمة التمثيل والغناء وإن لم يدرك من ذلك شيئاً .

كان المسرح غاصاً بالناس من طبقات رفيعة ، النساء في ملابس السهرة الجميلة وفي مجوهراتهن اللامعة ، والرجال في ملابس سوداء أنيقة محبوكة حاسري الرؤوس ، والكهرباء تنثر نورها فتزيد الوجوه الجميلة نوراً ، واللآلىء المضيئة لمعاناً ، وأُزيح الستار ورأى التمثيل لأول مرة ، كانت الرواية كوميدية ظريفة ، وكان التمثيل باللغة الإنكليزية ، وأُتيح للفتى أن يتابع الرواية . وإن لم يفهم كل ما دار فيها فهماً دقيقاً ، ولكنما أُتيح له أن يفهم ذلك إجمالاً من حركات الممثلين وتتابع المناظر في المسرح وكان يتخلل الفصول غناء مغنية هندية جميلة ، أعجبه صوتها الشرقي الساحر وأناتها الحزينة العميقة التي تؤثر في النفوس .

وهكذا كانت هذه الأيام البسمة التي قضاها الفتى في كراتشي فاتحة عالم جديد أُتيح له أن يدخله ، فقد زار حدائق كثيرة منها حديقة الحيوان ، ودهش كثيراً لرؤية الفيل وحركاته ، كما سرّ كثيراً برؤية القردة في أقفاصها الحديدية ، وأمعن في إيذائها ومداعبتها حتى صرفه مرافقه عن ذلك صرفاً . وتطلع الفتى إلى كثير من أنواع

الحيوانات لعله لم يعرف أكثرها ولم يسمع باسمها إلا في تلك الساعة ، ولكن عجبه لم يكن ينقضي فكل شيء كان جديداً في عينيه .

ولعل أكثر ما راعه كثرة السكان في هذه المدينة العظيمة ، وزحمة الشوارع واتساعها وامتدادها ، وامتلاؤها بالحركة إلى وقت متأخر من الليل ، حتى لقد كان يرى بعد ذلك أن الأمة لا تكون أمة ، والوطن لا يكون وطناً إلا بكثرة السكان ، وأدرك لأول وهلة معنى ما كان يقرأه في الصحف عن محاولات الأمم الراقية زيادة سكانها وتحسين النسل فيها كان الشارع الواحد في بومباي أو كراتشي يحتشد بعشرات الألوف من الناس ويزدحم بهم مما لم يكن تتيسر رؤية أمثاله على ضيق الشوارع في بلده إلا في زمن الحج حينما يسيل وادي ابراهيم بعشرات الألوف من الحجيج ، وحينما تمتلىء مكة ومنى بمختلف الملل والنحل من أجناس المسلمين .

قال الفتى مرة لمرافقه : لو جمعنا سكان المدن الكبرى في الحجاز جميعاً وأطلقناهم في شارع من شوارع هذه المدينة التي تعيشون فيها لما ظهروا ، فكيف تكون زحمة شارع واحد هنا أعظم من سكان قطر بأكمله ؟!

قال المرافق : هذا هو الفارق بين الفقر والغنى ، بل بين الجدب والخصب ، بلادنا فقيرة لأنها مجدبة ، ولأن وسائل الحياة فيها لم تتقدم بعد ، ما يزال كل شيء فيها كما كان منذ أن كان لهذه البلاد شأن في التاريخ ، انها تتقدم ببطء ، وتتقدم ولا تستمر في تقدمها فتأتي عليها عصور أو عهود تعود فيها إلى الوراء ، وبمعنى آخر ، انه ليست هناك فكرة أو برنامج مرتب تحافظ عليه البلاد لتسير في أدوار تقدمها المرتقب حسب خطة ثابتة . وإلى أن يحين الوقت الذي توضع فيه النظم للإصلاح ويرتب فيه كل شيء وتتوفر فيه الجهود لخدمة الأمة والبلاد ستبقى بلادنا فقيرة مجدبة قليلة السكان .

أما هنا فكل شيء يساعد على ما تراه ، الطبيعة الخصيبة ، ان الأمطار هنا في الشتاء تستمر أياماً وأياماً ، والأنهار العظيمة تتدفق في هذه البلاد فتحيل ترابها الأسود زروعاً وثماراً ، وجنات وأزهاراً ، والحياة تزيد وتنمو في أمثال هذه الأجواء الطبيعية الجميلة ، والعلم فتح أمام الناس آفاقاً واسعة للحياة ، فكنوز الأرض تستخرج لينتفع بها الناس ، والمصانع تعمل لتسد حاجات البلاد ، وآلات النقل الحديثة كما ترى من سيارات وقطر وطائرات تقرب هذه المسافات الشاسعة وتطويها

فلا يتكلّف الناس في قضاء مصالحهم وفي إيجاد روابط المصالح المختلفة بينهم . ومع هذا فإن هذه البلاد ما تزال متأخرة في رأي المتعلمين من أهلها وقادتها ، هم يطلبون لها أشياء كثيرة ، لعل أهمها الآن في نظرهم هو الاستقلال ، فهم ما زالوا محكومين لغيرهم ، يحكمهم الإنكليز وتحكمهم أشياء أخرى غير الإنكليز ، يحكمهم الجهل الذي ما زال يفرق بين هذه الأمة العظيمة الغنية ، وتحكمهم هذه الديانات المختلفة التي تجعل من بعضهم أعداء بعض ، والتي تجعلهم حرباً على أنفسهم وبلادهم ، فهنا الهندوكيون ، وهم الطبقة الغالبة ، ويليهم المسلمون وهم من الأقليات إلا أنهم أقلية محترمة مسموعة الكلمة مرموقة المقام ، ثم المنبوذون وهم الطبقة الشقية المضطهدة في هذه البلاد ، وهناك طبقات أخرى وديانات أخرى لا يتسع المقام لسردها ، فالطوائف الهندوكية كثيرة ، والطوائف الإسلامية مختلفة ، وهكذا ، وكل ما تراه في هذه البلاد من آثار للحضارة ومظاهر للتمدين إنما يرجع فضله إلى العلم والمتعلمين ، فالحكام أهل حضارة ومدنية فهم يدخلونها إلى هذه البلاد لأنهم لا يستطيعون الحياة في بلد لم يستكمل وسائل الراحة والحياة الراقية ، ولأنهم إلى جانب هذا يربحون من وراء ذلك أرباحاً اقتصاديةً لا يستهان بها ، فهم بهذا يخدمون أنفسهم بتوفير وسائل الراحة لهم ، ويخدمون بلادهم خدمة اقتصادية كبرى لأن زمام المصالح والمنشآت الكبرى للبيوتات الإنكليزية والتجار الإنكليز ، وهم بعد هذا يدلون على الوطنيين بأنهم حضروا البلاد ومدّنوها ، ويتباهون في العالم بذلك ، هذه هي سيطرة الاستعمار بل سيطرة العلم على الجهل ، وهذا هو الفارق بين العالمين والجاهلين .

استمع الفتى إلى كل هذا بإعجاب ، لا يخلو من دهشة ، ولعله لأول مرة فكر في هذا مخالفاً طبيعته العابثة وسجيته المستهترة ، ولعل مصدر هذا التفكير هو إعجابه بهذه البلاد ومظاهر الحضارة فيها ، وحبه أن يعيش في بلد تتوافر فيه كل هذه المظاهر للحضارة العظيمة فهو أينما ذهب وأنَّى حلّ وحيثما سار لا يجد إلا عظمة تملأ جوانب نفسه ، وتطغى على إحساسه فتحمله على التفكير بعد أن يستوفي حظه من المتعة بما رأى والسرور بما شهد ، عظمة البناء ، وعظمة التجارة ، وعظمة المكان ، وعظمة التنسيق والتجميل ، وعظمة العلم ، وعظمة المساجد ، وكل شيء يراه كان في رأي العين عظيما جسيما ، لهذا أصغى الفتى بسرور ودهشة وإعجاب إلى

حديث صاحبه ، ورأى لأول وهلة أن ما قاله صاحبه حقاً ، وفكر كيف يمكن أن تحيا بلاده هذه الحياة وأن تنهض أمته هذه النهضة ، وكل ما فيها فقير حقير ، التجارة كاسدة ، والمدارس لا تفي بـالحاجـة ولا ببعض الحاجـة ، والأقلية من المتخرجين منها في حاجة إلى التعليم العالي الذي لا يتوافر في بلادهـا والصحة متأخرة فالأطباء الوطنيون أقل من أصابـع اليد الـواحدة والـدواء غير مـوفور ، والمستشفيات تمثل للناس صورة من صور القبور ، والجهل ضارب أطنابه ، فالأدواء الكثيرة والعلل المختلفة تنخر في أجسام الأمة ، وتهددها بالفناء والزوال ، والقادرون يتطلبون علاج أمراضهم في مصر والهند بل وفي السودان . اي نعم في السودان ، وآلمه كثيراً أن يكـون السودان أعـظم طباً من مكـة ، عاصمـة الإسلام وكعبـة المسلمين ، وحالة البلد الاقتصادية لا تبشّر بخير ، فالناس إنما يعيشون على الحجاج وعلى ما يرد منهم ، وقد أُتيح له أن يرى دورين مختلفين لحالتي العسر واليسر في بلاده . فهو يذكر الأيام التي كانت بلاده فيها تكتظ بالحجاج من جاويين وهنديين ومصريين وسوريين وغيرهم من أصناف الأمم الإسلامية المختلفة ويذكر ما كان عليه القائمون بأمر هؤلاء الحجاج من مطوفين ووكلاء من حالة يسر وبذخ تسلكهم في عداد الأغنياء أو الوجهاء ، ثم يذكر بعد هذا حالتهم الحاضرة وما آبوا إليه بعد أن انقطع وارد الحجاج وقلّ تعدادهم في سنـوات الأزمة العـالمية وبعـدها ، وكيف أصبحوا في حالة من الفقر والمتربة أدالت دولتهم وأذلت كبرياءهم ، بعد أن باعوا الغالي والرخيص ، وبعد أن استولى الدين وفوائد الدين على كل درهم ودينار وحجر ومدر وفضة وذهب كان في أيديهم إلا القليل منهم ، ذكر كل هذا وذكر ما كان يقوله هؤلاء ، ان السيارات هي السبب في كل هذا البلاء ، فهي التي حالت بين الحجاج وبين القدوم إلى الحجاز قبل موعد الحج بشهور طويلة كما كانوا يفعلون يوم أن لم يكن الحجاز يعتمد من وسائل النقل إلا على الجمل ، وما يجري مجراه من ذوات الأربع ، فقد كان الحجاز يفيد كثيراً من قدوم الحجاج في وقت مبكر جداً ، إذ كان على من يريد الحج من أندونيسيا مثلاً أن يغادر بلاده قبل ستة شهور أو سبع ليصل إلى مكة فيتمتع بالبقاء فيها شهوراً وشهوراً ويذهب إلى المدينة فيقضي بها ما شاء الله أن يقضي من شهور وأسابيع ، ولم تكن الواسطة إذ ذاك إلا الجمل وهو نتاج وطني يشغل أيدياً وطنيةً كثيرة في رأيهم ، ونسوا أن الجمل هو الحيوان الوطني في الأمر كله وما بقي بعد ذلك كله خارجي كالسيارة سواء بسواء ، والواقع أن

الارتباك الاقتصادي الذي أحدثته السيارة ، أو على الأصح الذي أحدثه اختلاف وسائل النقل من الحيوان إلى الآلة لم يكن يسير الهضم فقد ذهب بثروات كثيرة ، إذ أقدم على العمل والمغامرة في التيار الجديد كثيرون لا يعرفون من هذا الأمر شيئاً ، وكان لا بد وأن يكون لهذه المزاحمة أثرها على رؤوس الأموال وعلى المستهلكين معاً ، أثرت على رؤوس الأموال لأن التنافس أدى إلى رخص الأجور فقد كانت بعض الشركات تحمل الحجاج بأجر بسيط لا يقوم بما يجب لإدارة السيارات وأعمالها من مصاريف وتكاليف وأثرت على المستهلكين ـ نعني ركاب السيارات ـ لأن أغلب الشركات لم تكن مستعدة الاستعداد الكافي ، ولأن المستهلكين أنفسهم كانوا يبحثون عن أرخص الأجور دون نظر إلى جودة السيارة ومدى استعدادها ، فلما انتظم الأمر وأحكمت الإدارة أصبحت السيارات عملاً مربحاً ذا أثر بعيد فعال ، فما دفعته البلاد أولا من خسارة الكثيرين وفقدان ثرواتهم إنما كان ثمن الراحة والتمدن ، والنقلة من عصر الحيوان إلى عصر الآلة ، وهكذا كل أمر لا يفكر فيه قبل عمله لا بد له من خسارة تختلف باختلاف قيمة المغامرة ومقدارها .

فكر الفتى في هذا كله وفيما يجري مجراه ، ولكن الحياة هناك لم تكن تتيح له فرصة التفكير المستمر في هذا وأمثاله ، كما أن طبيعته اللاهية لم تكن تساعده على إطالة الفكر وإعماله فيما يرى وما يسمع ، وأخيراً قطعت عليه مجرى تفكيره هذا الرحلة المرتقبة التى كانت تعد له إعداداً والتي لم يكن يدري عنها شيئاً فقد كان عليه أن يغادر كراتشي إلى « جوكولا » في ريف الهند الجميل .

- ٧ -

كان القطار ينهب الأرض نهباً وهو يودع المدينة ، ولم تستوقف زحمة المحطة ولا حركتها ولا عظمة البناء في هذه المرة نظر الفتى فقد تعود هذا كله وألفته عيناه ، واستراحت إليه نفسه فهو إنما يرى شيئاً أصبح معروفاً له وحبيباً إليه ، وهو قد كان يفكر في فراق هذه المدينة التي أحبها والتي لم يتعرف إليها إلا منذ قليل ، ولكن أكان مختاراً في هذا الوداع ؟ لقد علم أخيراً أن الطبيب الذي فحصه هو الذي أشار بهذه الرحلة إلى قلب الريف الهندي في مستشفى عينه هناك .

وكانت بالفتى رغبة في أن يرى كل يوم بل كل ساعة جديداً ، ولكنه وقد

أحب المدينة العظيمة لا يود أن يبرحها هكذا سريعاً خصوصاً وأنه علم أن إقامته في هذا الريف قد تطول كثيراً.

كان للفتى في رحلته تلك متاع نفسي عظيم فلم تقع عينه منذ أن فارق العمران إلا على مزارع خصيبة وخضرة مونقة، وعيون متدفقة، وحياة خصيبة مترعة فيها للعين راحة وللقلب بهجة وللنظر متاع ما بعده من متاع.

واستوقف نظر الفتى واد خصيب تتوسطه غابة خيل إليه من تشابك أغصانها، والتفاف أعوادها وتدفقها بالخضرة والزهر أنها صورة من الجنة التي وعد المتقون، ولاحظ رفيق الفتى - وهو الحجازي الذي كان يرافقه في كراتشي ويوقفه على اعلامها - سرور الفتى ودهشته بما رأى، فقال له: كيف أنت يا صديقي، أمسرور بما ترى وتشهد من آيات الله في هذا الريف الجميل ؟.

قال الفتى: وكيف لا يسر من يرى كل هذا الجمال، وكل هذه الحياة البديعة، اني ليخيل إليّ أني في حلم من الأحلام، فما هذه الدنيا الفاتنة التي تعيشون فيها وتحيونها إلا صورة من صور الجنة الموعودة يوم المعاد !!.

قال صاحبنا - وكان أريباً -: ولماذا ؟ ألم يسبق لك أن شهدت في بلادنا مثل هذا ؟ تنهد الفتى من قلب مكلوم وهو يقول: بالله دع عنك هذا فأين نحن الآن وأين بلادنا من هذا النعيم المقيم، اننا نعيش في واد والعالم في واد آخر، إن بلادنا يا سيدي ينقصها الماء، الماء الذي يشربه الناس، فضلاً عن الماء الذي تروى به الأشجار وتحيا عليه الثمار.

إن جدة - وهي المدينة التي نشأت بها - ليس فيها حديقة واحدة يرتاح إليها النظر أو يسرح فيها الطرف، بل ان الناس فيها إنما يعيشون على أنواع متعددة من الماء، منها ما يقطر من البحر وهو ماء الشرب للمترفين، ومنها ما ينبع من عين بعيدة عن المدينة وهو ماء فيه كثير من الملوحة، وهو شراب الفقراء والمعوزين. وهناك ماء ثالث هو ماء الآبار المالحة وهو ما يشترك فيه الجميع وهو يستعمل لكل شيء فيما عدا الشرب، ولو ساغ لحلق آدمي أن يسيغه لوجد في بلادنا من يسيغه ممن لا يقوى على شراء الماء المقطر أو الماء العذب.

قال صاحبنا - وقد أخذته غصة وشاعت امارات الاستغراب في وجهه -:

ولكن لماذا لا تسحب المياه من الأودية الخصيبة ، والعيون الكثيرة القريبة من جدة كوادي خليص وغيره من الأودية الشهيرة بالمياه والعيون ؟ وقد قرأنا من قبل تقارير تؤكد إمكان سحب هذا الماء وإيصاله إلى المدينة وهو ماء صالح كل الصلاحية ، بل لقد كنا نظن أن المشروع الذي فكر فيه قد نفذ وأن الناس قد ارتاحوا إلى هذا الأمر وخلصوا من هذه القضية .

قال الفتى : إنما هذا كلام يقال ، والناس ينتظرون دائماً من الحكومة أن تفعل ، ولكن الأزمة ، الأزمة الاقتصادية العصيبة التي يعانيها العالم كله لا تساعد بلادنا على إنفاذ شي من ذلك .

وهنا استوقف الفتى ورفيقه منظرٌ ساحر لضيعة جميلة بني فيها بيت صغير على طراز أنيق ونسقت حوله حديقة مونقة زاهرة تبدت الفتنة فيها واضحة حتى تكاد أن تنطق وتتكلم ـ كما يقول البحتري ـ فسأل الفتى صاحبه : لمن هذا المنزل وهذا البستان ؟ أهو لأمير القرية أم وزيرها ؟ فضحك صاحبنا وقال : كلا إنما هو لفتى من أغنياء القرية الذين يحبون المحافظة على أرضهم وزراعتهم بالبقاء إلى جانبها ، وسترى كثيراً من هذه البيوت الأنيقة ، والضياع الواسعة في هذه الرحلة عما قريب .

قال الفتى : ولكنا لا نعرف أنه يوجد في مكة كلها بستان إلا لأمير أو وزير ، حتى لقد ظننا أنه لا يمكن أن يكون البستان إلا لأمير أو وزير أو من يقوم مقامهما من الناس .

قال صاحبنا : فإنك سترى كثيراً من الأمراء والوزراء هنا على هذا الاعتبار . وتضاحكا . وآن للرحلة أن تنتهي بعد مغرب الشمس ، وأن يقف القطار وقفته الأخيرة عند « جوكولا » وهي القرية التي اختير له أن يقضي بها شهوراً وأعواماً لا يعرف هو ولا غيره ماذا يكون تعدادها .

كانت في استقبال الفتى ورفيقه سيارة استقلّاها إلى فندق جميل وكانا متعبين فتناولا عشاءهما وأوى كل منهما إلى سرير مريح ، وقضى الفتى ليلة هادئة لم يتخللها صحو . استيقظ في البكرة وانطلق إلى الشرفة فإذا هي تطل على حديقة زاهرة وكان الجو مشبعاً برائحة الأزهار، وبأنفاس الصبح الوليد فكانت للفتى من هذا وذاك فرحة كفرحة الطفل بالعيد ، أو فرحة الطفلة بالثوب الجديد .

وهبط الفتى إلى الحديقة يجوس خلالها ويتحسس أزهارها وأوراقها الخضراء بيديه ويرشف الطل المتلألىء على الأغصان بفم عطشان ، وينشق الأزهار ويضاحك الأطيار كأنه عصفور عاد إلى وكره ، أو حبيب يفرح بلقاء حبيب .

ودُعي الفتى إلى المائدة فوجد صاحبه قد سبقه إليها فتناولا فطورهما ، والفتى يتحدث بشوق وإسهاب ، والرفيق يصغي بسرور فقد أعجبه أن ارتاح الفتى إلى حياته الجديدة التي قدّر عليه أن يحياها .

- ٨ -

ذهب الفتى وصاحبه في الضحوة لزيارة المدينة الصغيرة ، فأعجب الفتى بها أيما إعجاب وسره أنه رأى بها صوراً شتى من المدن العظيمة التي أحبها ، وسره أكثر بساطة الحياة وجمال الطبيعة وصحوها ، ونشاط الهواء ورقته في آن معاً ، ووقف الفتى ورفيقه أمام بناء كبير من طابقين تحيط به حديقة غناء واسعة مترامية الأطراف لم ير الفتى فيما مرّ به من معالم المدينة ومباهجها بناءً أجمل منه ، ولا حديقة أكبر منها ، ودخل الفتى ورفيقه إليها وعرجا على الحديقة يطوفان بها . واستوقف الفتى ما فيها من تماثيل ، وتهاويل ، وأشكال من الزهر والثمر لم يعرفها، ولم يسمع بها ، ولم يستطع الفتى ولا رفيقه أن يصلا إلى نهايتها فقد كانت واسعة الأرجاء كأنها مدينة كبيرة فيما يصور له الخيال الوثاب .

وفي مدخل البناء دلف الرفيقان إلى غرفة مدير المستشفى ، وقال المدير بعد حديث قصير مع صاحب الفتى :

إذاً فهذا هو ضيفنا الجديد . مرحباً بك يا بني ، وخرجوا جميعاً يقودهم مدير المستشفى إلى غرف المستشفى وحجراته فأعجب الفتى بما شهد أيّما إعجاب واسترعى انتباهه قبل كل شيء الهدوء الذي يسود حجرات المرضى والممرات النظيفة والأبهاء الأنيقة الجميلة الواسعة والعناية التامة ، وبعد انتهاء الزيارة ودعهم المدير بعد أن تحدث إلى صديق الفتى على انفراد ، وعاد الفتى ورفيقه إلى نزلهما فتناولا غداءهما ، وجلسا يتحدثان ، وفي هذه الجلسة أفهم صاحبنا رفيقه ـ الفتى ـ أنه سيعود من فوره إلى بومباى لأن عملاً سينتظره هناك ، وتلطف في إفهامه بخطورة مرضه فقد كان « مصاباً بالدرن في أولى درجاته . وهنا شرح له باسهاب ما

يجب عليه لنفسه من عناية ، وقال له فيما قال : إنك ستقضي هنا في المستشفى الذي زرناه صباحاً عدة أسابيع وستكون تحت ملاحظة الأطباء ، وقد قرر الطبيب الذي زرناه معاً في بومباى أن تقضي هذه المدة هادئاً وأن تفعل كل ما يطلب منك فعله ، ولن يطلب منك سوى أن تتغذى جيداً وأن تنام كثيراً ، وأن تكون دائم الابتسام والسرور ، ومن ذا الذي لا يود أن يعيش لا لعدة أسابيع وإنما لعمر طويل هذه العيشة السعيدة الراضية ؟ وان الطبيب لواثق ، وأنا كذلك ، بأنك ستنجو من مرضك ، الذي لا يعد خطيراً حتى الآن ، في وقت قصير ، وسأعود إليك بعد أسابيع لأراك وأطمئن عليك ويمكنك أن تكتب إليّ على الدوام وستجد في المستشفى كل ما تحتاج إليه ، وقد أحضرت لك مجموعة من الكتب العربية لتتسلى بقراءتها فإنه ليس لديك ما يشغل أوقات فراغك الطويل . وحزن الفتى قليلا لما سمع ولكن رفيقه لم يتركه إلا بعد أن سرّى عنه ، وبعد أن أخذ عليه عهداً صادقاً بأن يعنى كل العناية بشؤون صحته ، وأن يصغي إلى نصح طبيبه كما يحافظ على تنفيذ تعليمات مدير المستشفى تماماً .

وتصافحا وركب الرفيق القطار عائداً من حيث أتى ، وعاد الفتى إلى المستشفى بما لديه من أمتعة قليلة ليفتتح به عهداً من عهود حياته لم يعرفه قبل الآن .

- ٩ -

كانت غرفة الفتى بالمستشفى أنيقة هادئة تتوسطها نافذة تشرف على حديقة المستشفى الغناء وفي طرف منها السرير الأبيض بملاءته البيضاء وفرشه الناصع البياض ، وفي الطرف الآخر مقعد طويل للاستراحة وبالحجرة دولاب للملابس ومائدة صغيرة وزهرية تعلو دولاباً صغيراً آخر إلى جانب السرير ، وكان البياض هو اللون الغالب الذى تتميز به الحجرة بل يتميز به المستشفى كله وكان الهدوء والسكينة هما الصفتان اللتان تتميز بهما الحياة في هذه الدار الرحبة الواسعة الأرجاء الكثيرة السكان .

كان النظام اليومي في المستشفى بديعاً في نظر « أسامة » في أيامه الأولى ، فقد كان يستيقظ في البكرة المطلولة فيخرج إلى حديقة المستشفى حتى يحين موعد الإفطار فيذهب إلى غرفته لتناول إفطاره ويقضي بها قليلاً من الوقت للراحة ، وفي الضحوة

يخرج إلى الفناء الخارجي فيقضي به بعض الوقت في القراءة والحديث مع من يكون هناك من سكان المستشفى ونزلائه ، وقبيل الظهر يعود إلى غرفته استعداداً للغداء تعقبه إغفاءة تمتد إلى وقت العصر حيث يتناول الشاي ويتريض في أرجاء الحديقة الواسعة وقبيل الغروب يعود إلى غرفته فيتناول عشاءه ويقضي قليلاً من الوقت في القراءة ثم يجبر على النوم المبكر بإطفاء النور المعد للقراءة ، ولكن فتانا ضاق ذرعاً بهذا النظام بعد أسبوع أو أسبوعين ، وشكا ذلك إلى الطبيب الذي كان يفحصه في أيام متوالية بنظام معين ، وكانت صحته تتقدم باستمرار ، وكان الغذاء الجيد والنوم المبكر ، والرياضة المنتظمة ، والهواء النقي قد أفادته صحة وعافية ، وقد وعده الطبيب بأنه إن سار على هذا النظام فإن صحته ستزداد تحسناً وسيسمح له فيما بعد بمغادرة المستشفى في بعض الأوقات للفسحة في المدينة ، ونصح له في نفس الوقت بأن يشغل نفسه بهواية من الهوايات الفنية التي يميل إليها ليقضي على الضيق والبرم من حياة المستشفى الرتيبة . وتفرغ فتانا لدراسة اللغة الإنكليزية التي يعرف منها بعض الشيء بعد أن رأى أن لغته العربية لا سوق لها في هذه البلاد ، وبعد أن رأى أن اللغة الإنكليزية هي اللغة العليا هنا ، وكان حتى الآن يجد صعوبة شديدة في التفاهم بها فيستعين بكلمات قليلة من اللغة الهندية التي التقطها أثناء إقامته القصيرة ويضيف إلى ذلك كثيراً من الإشارات وبعض الكلمات العربية ليصل إلى ما يريد ، وكان هذا شاقاً في البداية ، ومضحكاً أيضاً ، ولكنه ما لبث أن وطّن نفسه عليه ، وأن وطن مخاطبوه أنفسهم على قبوله وتحمله فسارت الأمور سيراً أقرب إلى العادي ، ولكنه كان وما زال يشعر بهذا النقص في كل خطوة يخطوها ، أو غاية يعبّر عنها وكان هذا كما قلنا أصبح عادياً بالنسبة للمتصلين به من أطباء وممرضين وممرضات وخدم ، ولكن الصعوبة كانت تتجدد حينما يريد التحدث إلى نزلاء المستشفى الذين يلتقي بهم في الحديقة وفي الفناء وفي أبهاء المستشفى وحجراته ، كما قدر أنه سيكون مشكلة كبرى حينما يسمح له الطبيب بالتجول في المدينة وارتيادها ، لهذا قرّ عزمه على دراسة اللغة الإنكليزية والتمكّن منها قدر ما يستطيع .

حاول الفتى أولاً أن يدرس على انفراد ولكن مساعيه كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد كان يحفظ الكلمات ولكنه لا يحسن نطقها أو ينطقها نطقاً ملتوياً معقداً يبعد عن الصحة في كثير من الأحيان . وكانت التراكيب تتعبه وتثقل عليه

فرأى أن هذا عبث لا فائدة منه . لهذا عاد إلى ما يحفظ من كلمات صحيحة تعلمها على يدي أستاذ قدير في الحجاز فدوّنها وحفظها واستعادها وأخذ يعيد ما قرأه ولكنه ما لبث أن سئم هذا كله بدافع من طبيعته القلقة المترددة فنفض يده من هذا كله آيساً ، إلى أن كان ذات يوم يشرب الشاي في فناء المستشفى المواجه للحديقة ، وإذا رجل هندي يُقرئه السلام ويجلس إليه فيجاذبه أطراف الحديث بلغة هي خليط من العربية والإنكليزية والأوردية ، وتعارفا على قدر ما تسمح لغتهما أو لغاتهما المشتركة على الأصح ـ فنفض فتانا إلى صاحبه القصة في أسلوب مختصر ، ونفض ـ عبد القهار صاحب ـ فهذا اسمه ـ قصته وهي تتلخص في أنه هو أيضاً مصاب بالدرن في أولى درجاته وأنه قضى بالمستشفى ما يقرب من عام ولكن صحته قد تماثلت للشفاء وربما سمح له بمغادرة المستشفى بعد شهرين أو أقل ليقيم في المدينة إلى أمد معين ، حيث يستكمل شفاءه ومن ثم يعود إلى بلده في (حيدر آباد دكن) ، وقال في ما قال : إنه حضر مرة إلى الحج وعرف قليلاً من العربية أثناء إقامته بالحجاز وذكر له أسماء أناس يعرفهم في مكة وجدة والمدينة عرف الفتى بعضهم وأنكر البعض الآخر ، وقد علم صاحبنا بأمر الفتى من موظفي المستشفى فأحبَّ أن يتعرف إلى عربي مسلم من مكة ليتذاكر معه أو ليتعلّم عليه على الأصح قليلاً من اللغة العربية . فإنه كان منذ ذهب إلى الحجاز حاجاً يفكر في العودة إليه لافتتاح محل تجاري هناك .

قال الفتى : وما الذي يدعوك إلى أن تغادر هذه البلاد الجميلة وفيها أهلك وموطنك لتهاجر إلى بلاد فقيرة نائية لا تعرف لغتها ولا أهلها ولا شؤون الحياة فيها ؟!

فتبسَّم « عبد القهار صاحب » ابتسامة من يرثي لحال محدثه وقال : انك واهم فيما قدّرت من أمري وأمر هذه البلاد يا بني ، كما انك واهم فيما قدّرته من أمرك وأمر بلدك . حقاً إن الحياة جميلة هنا ، ولكنها جميلة للأغنياء والمترفين ، الذين يتدفق عليهم الذهب ، أو الذين ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب ـ كما يقول شاعركم العربي القديم في ما سمعته عنكم ـ ولكن الفقراء أمثالي ، وأنا فقير ، فلا يغرنك ما تراه من إقامتي في هذا المستشفى الكثير النفقة فإني أقيم على حساب غيري ، ولكن لهذا حديثاً آخر سيأتي فيما بعد ، أقول ولكن الفقراء أمثالي قد لا

يجدون هنا وفي هذه البلاد الجميلة الغنية ما يقيم الأود أو يحفظ الحياة ، فالتزاحم شديد وخصوبة البلاد أو جمالها أو حسن موقعها قد تكون شرّاً على أهلها وليست خيراً لهم ، بل قد تكون شرّاً لا يخالطه شيء من الخير ، فإن خصوبة الأرض وحسن الموقع يغري الأغنياء من الأجانب باستعمار البلاد استعماراً سياسياً واقتصادياً إن أمكن ، أو استعماراً اقتصادياً إن لم يتيسر الاستعمار السياسي ، وليس الاستعمار السياسي إلا وسيلة للاستعمار الاقتصادي فحسب ، ولكن الفرنجة ، والإنكليز على وجه الخصوص يجعلون الاستعمار السياسي هو الغاية المعرضة للأنظار ، ويستغلون الشعب المحكوم لهم اقتصادياً وسياسياً ، فإذا ما تنبّه هذا الشعب يوماً إلى حقه المغصوب لم يفكر أولاً إلا في رفع نير الاستعمار السياسي وحفظ كرامة البلاد وعزتها . هنالك يلجأ المستعمرون إلى المساومة على هذا الاستقلال باعتبار أنهم هم المسؤولون عن الأمن في هذه البلاد وعن المدنية فيها وعن أرواح الأجانب وصيانة ممتلكاتهم ، إلى آخر هذه التعلات التي حذقها هؤلاء القوم حذقاً لا مزيد عليه ، فلا يمنحون هذا الاستقلال ، وإنما يؤخذ منهم قطع صغيرة أو أجزاء متناثرة على حسب قوة الشعب الآخذ ومدى حيويته وتسانده ، واتحاد هيئاته وقادته ، فهم يلوّحون بالدستور أولا ويجعلون من هذا الدستور أداة للتفريق بين القادة والزعماء ، ووسيلة من وسائل الإغراء والتمويه ، يرمون هذه الكرة الذهبية التي اسمها الدستور ليتقاذفها الزعماء والسياسيون والقادة فيختصمون عليها ويتحاربون في سبيلها فينصرفون عن المطالبة بالاستقلال وينقسمون أحزاباً وشيعاً ، فإن من أول مبادىء الحكم الدستوري وجود أحزاب تتناوب الحكم ويعارض بعضها بعضاً .

بأمثال هذه الوسيلة يقف الحاكم موقف المتفرج ويترك الشعب المطالب باستقلاله يحارب بعضه بعضاً ويترك الزعماء والقادة يمزق بعضهم أعراض بعض ، ويطعن بعضهم شرف البعض الآخر وأمانته ونزاهته حتى يداخل الأمة نفسها الشك والريبة في أمانة الزعماء وشرف القادة ، وما داخلت الريبة قلب شعب في قادته ، وما لامس الشك نفوس أمة في زعمائها ، إلا وانصرف الشعب عن هؤلاء القادة ، وانفضّ من حول الزعماء ، وأصبحت القضية التى كان يسعى الجميع في سبيلها قضية خاسرة ، لأنه ليس هناك من يؤمن بها ويضحي في سبيلها ، هنالك تنقلب الأمة على زعمائها فتفتك بهم وتفقدهم ، وهناك تلعب

الأيدي الأجنبية لتفيد من كل هذا الاضطراب ولتوجهه الوجهة التي تفيد منها قضية الحاكمين وتخسر بها قضية المحكومين . وفي ساعة من ساعات التجلي تنكشف هذه الغمرة فيتنبه الشعب إلى اللعبة الشيطانية التي سلطها حكامه عليه ، ويستيقظ القادة ينفضون عن وجوههم غبار المعارك الكاذبة فيعرفون أي خدعة خدعوا بها ، هناك يتساندون في الدفاع عن حقوقهم وحقوق بلادهم ، وهنالك يقفون صفاً واحداً لا تمزقه الأهواء ، ولا تغريه المطامع لأن هذا كله قد جربوه وذاقوا حرقاته ، ومن وراء هؤلاء الزعماء أمة آمنت بحقها ، وأقسمت أن تموت دونه ، هنالك يرى الحكام أنه قد آن لهم أن يساوموا على ما بأيديهم فيأخذ الشعب بعض حقه من الاستقلال ليأخذوا هم أكبر نصيب من خيرات البلاد واقتصادياتها ، ومن هنا دخلت في معاهدات الشرق النصوص على حقوق الأفضلية للشعوب الصديقة والحليفة . ومن السهل بعد زمن يطول أو يقصر ، وبعد جهاد كبير على كل حال أن تنال الأمة حقوقها السياسية ، واستقلالها السياسي ، ولكنه ليس من السهل ولا من اليسير أن تدرك أمة كانت مغلوبة على أمرها حقوقها الاقتصادية وأن تحقق آمالها في استقلال اقتصادي إلا بعد أن يبلغ هذا الشعب رشده ، وبعد أن يبلغ حكامه من القوة مبلغاً يسمح لهم بأن يضربوا الضربة القاضية « ودون أي اعتبار » على كل أجنبي يستغل البلد الذي ينزله اقتصادياً ، ولهذا أو ذاك وسائل تعرفها الحكومات الرشيدة القوية ، فنحن الآن في هذه البلاد الغنية الخصيبة مستعبدون سياسياً واقتصادياً يفرق الإنكليز بيننا بالاختلافات الدينية والمذهبية ويفرّقون بيننا بالدستور وبأشياء أخرى غير الدستور وغير الخلافات الدينية ليس هذا مجال بحثها الآن ، فالفتى الطائل الثراء هو الذي يستطيع الحياة في هذه البلاد ممتعاً منعماً ، أما الفقير فإنه قد لا يجد ما يقيم أوده ، يحرث الأرض ويزرعها ولكن لا يأكل من ثمراتها إلا العفن ، وينسج القماش ويحوك الحرير ولكنه لا يلبس إلا الخيش ، ويبني المنازل ولكنه ينام على قارعة الطريق مطارداً من الشرطة والبوليس ، ويربي الماشية ويسمنها ولكنه لا يأكل منها إلا العظام ، في بلادنا الأنهار والعيون ، ولكنا لا نشرب إلا الماء القذر ، هذه حياة الفقراء في هذه البلاد الخصيبة الجميلة ، بلاد الطبقات والاستعمار . فكيف لا يفكر مثلي في العودة إلى بلادكم وهي على فقرها الظاهر أهنأ حالاً وأنعم بالاً مما نحن فيه ؟ .

قال الفتى : وأي عمل تستطيع أن تعمله في بلادنا ؟ إنك لا تحسن العربية حتى تحصل على وظيفة في الحكومة ، ولست من أرباب الصناعات ، فيما أظن ، وحذاقها حتى تعمل مهندساً في السيارات ، أو مكائن الكهرباء في بيوت السادة والأغنياء ، أو في مصانع الحكومة ودورها ؟ ولا يمكن أن تكون يوماً ما مطوفاً أو زمزمياً أو دليلاً في مكة والمدينة ، ولست غنياً كما تقول لتفتتح محلاً تجارياً تزاحم به التجار هناك وهم طبقتان ، طبقة المستوردين من الهند وأوربا وهؤلاء أغنياء البلاد وسراتها الذين تقدر ثرواتهم بألوف الجنيهات الذهبية ، وطبقة صغار التجار الذين يشترون من المستوردين فيبيعون بالتفرقة والتجزئة للمستهلكين . ولعلك لا تعلم أن هذه الطبقة من التجار تكاد تنحصر الآن في بلادنا في بعض الأجناس من المهاجرين الذين زاحموا أهل البلاد ذاتهم فاضطروا أن يتخلوا عن هذا العمل لهم ، ولا أظنك بمستطيع يا صاحبي أن تعيش عيشهم فإنك رجل تحس وتشعر وتطلب المتاع والحياة ، وهؤلاء إنما يحسون الربح ويشعرون بالدرهم والدينار ، ويطلبون المتاع في الحرمان والحياة في جمع الذهب وتمويل المال . ولا أراك بعد هذا قوي البنية لتعمل فاعلاً أو سقاءً تنقل الماء من العيون أو الكنداسات إلى البيوت ، فالصناعات في بلادنا محدودة كما ترى وأنت رجل تتطلب المتاع والراحة وهما ليسا ميسرين عندنا ، بل إن أسبابهما منعدمة كما ترى . وإني لأنصح لك أن تبقى في بلدك فقيراً محروماً خير لك من أن تهاجر إلى بلد غريب لا تستطيع أن تتمتع فيه حتى بالوسائل الراقية من الحياة المباحة للأغنياء والفقراء عندكم على السواء .

قال عبد القهار : وكيف ذلك ؟

قال الفتى : إن العلم يا صاحبي قد منحكم من وسائل الرفاهية والتمدين ما لا يستطيع مال الأغنياء أن يمنحه لهم في بلادنا . إني لا أعرف الكثير من بلادكم المترامية الأطراف ، ولكني لم أر فيما يراه الزائر حتى الآن شيئاً إلا وكان موضع عجبي وإعجابي ، إن بلادنا ما تزال حتى اليوم تشرب من ماء الآبار أو العيون وهي مياه ليست بالمعقمة ولا النظيفة ، بل هي مباءة للحشرات والهوام ، والأفاعي والثعابين التي تعيش فيها . لأن هذه الآبار مفتوحة ومعرضة للأقذار والمكروبات ، وأنتم تشربون الماء صافياً معقماً صحياً نظيفاً بثمن بخس أما نحن فندفع في هذا الماء القذر ما لا يخطر لك على بال ، بل في بعض المدن يدفع المتوسطون نصف

دخلهم تقريباً لقيمة الماء فقط . هذا عن الماء الذي هو أول مقومات الحياة والذي يقول فيه الله سبحانه وتعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ، ثم إن الحضارة والعلم بذلا لكم المستشفيات ، فالمريض هنا وإن كان فقيراً ومعدماً لا بد وأن يجد حاجته من العلاج والتطبيب ، يجد الطبيب الذي يعالجه بأجر زهيد أو بغير أجر ، ويجد المستشفى الذي ينام فيه مطمئناً إلى عناية الأطباء وعملهم ، أما نحن يا سيدي فلنا الله ، الأغنياء منا إن مرضوا ذهبوا مستشفين إلى مصر والهند والسودان وأرتريا ، وها أنذا بين يديك مثل من هذه الأمثال ، وأنت تعرف ما تكلفه الرحلة والنقلة من بلد ناء كبلدي إلى هذا البلد البعيد ، الذي أعيش فيه غريباً لا أحسن حتى لغة أهله ، وهنا يا سيدي لديكم من أصناف المتاع الحلال ما يعد حلماً من الأحلام في بلادنا ، أتعرف أن بلادنا ليس فيها إلا طريق واحد مرصوف بين مكة وجدة فقط ؟ أتعرف أنه ليس في مكة كلها ولا في جدة متنزه عام أو حديقة عامة واحدة يلجأ إليها الناس في الأضحيات والأمسيات بأطفالهم وأصدقائهم ليستروحوا فيها النسمات العذاب ، وتعرف أن الشوارع الرئيسية في مدننا ما تزال تراباً تثير السيارات فيها الغبار يزكم الأنوف ويكتم الصدور ويهيىء لأفتك الأمراض ، هناك يا سيدي حديقة جميلة في مكة ولكنها بعيدة في ضاحية من ضواحي البلدة لا يملك الذهاب إليها إلا أصحاب السيارات وهم الأغنياء . أتعرف أنه ليس في مكة كلها وهي العاصمة شيء اسمه الترام أو الأتوبيس ، وحتى سيارات الأجرة ليست ميسرة في كل حين وإذا وجدت فبأفدح الأثمان ، هناك شركة اسمها شركة السيارات لها امتياز النقل ولكنها لا تحفل بأمر الناس ولا براحتهم فهي تشحنهم في سياراتها كما تشحن الطرود ، وتقوم السيارات في الموعد الوحيد الذي لا يتناسب إلا مع إقلاق جميع الركاب وإزعاجهم ، والكهرباء يا سيدي هي الحلم العجيب أو العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا في بلادنا ، ليست في بلادنا كلها إنارة عامة ، وإنما يستورد بعض الأغنياء مكائن صغيرة لإضاءة دورهم ويتكلفون لذلك ما لا يطيقه إلا الأقلون ، أما هذه الوسائل فهي ميسرة لديكم بأبخس الأثمان ، ستفتقد هذه الوسائل البسيطة لتراها هناك نعيم الدنيا إن وجدت ، وأنت إنما ترنو ببصرك إلى متاع أعظم وأكبر من هذا المتاع ، بل إني لم أقل لك إنه ليست في بلادنا جامعة واحدة ولا مدرسة عليا ، فالأغنياء والقادرون مضطرون إلى ترحيل أبنائهم إلى مصر لطلب العلم مضحين بفراقهم في سبيل ذلك ! فماذا بالله تبغي من التفكير في

الهجرة إلى الحجاز ؟

قال عبد القهار : إن ما تقوله يستوقف النظر ويثير التفكير حقاً ولكن نظرتي إلى الحياة تختلف عن نظرتك أيها الفتى فإني أعرف من نفسي أن الحياة في مجتمع زاخر بألوان الفتنة والترف كالحياة في بلادنا ومجتمعنا ، تشعر الفقير من المال مثلي بقسوة الحرمان ، وظلم المجتمع ، إن مظاهر الفتنة التي تستهويك في بلادنا تلذع أمثالنا لذع النار ، لأنهم لا يقنعون بالرؤ ية والنظر البعيد ، إنني أود لو أشارك في كل ما أرى من ألوان الحياة ، أود ذلك بكل ما يملكه قلبي من شباب متوثب ، وأمان مكبوتة وما أمثالي إلا كالجائع يرى المائدة الحافلة ويشم رائحة الطعام الجيد ، ولكنه لا يحظى من هذه المائدة ولا بالفتات ! فالبعد عن هذه المناظر أروح للقلب وأهدأ للنفس ، لأنك ما دمت قد بعدت عن الشيء فأنت بعيد عن الشعور بالحرمان منه ، أما البقاء والاكتفاء بالنظر وملامسة الحياة من وراء حجاب فهي في نظري كمن ينظر إلى المعارض « الفاترينات » ليمتع بصره بما وراءها من تحف فإذا ما امتدت يده تريد لمسها حال بينه وبينها زجاج بارد غليظ شفاف . أما في بلادكم فهناك الحرمان العام والمساواة في الظلم عدل . ثم إني أطمع هناك أن أشق طريقي فإني لا أكتمك أن مثلي يستطيع أن يزاحم حتى كبار التجار عندكم لأنهم لا يعملون على أساس تجاري صحيح ، إني أتقن الإنكليزية وهذا يساعدني أن أعمل مترجماً وكاتباً للتجار وسأفيد من ذلك ما يضمن لي حياة طيبة ، ثم إن هذا سيكشف لي عن حاجة البلاد إلى الأصناف التي تروج بها ، وسأكتب في استيرادها وأبيعها بربح بسيط ، لأن تجاركم لا يقنعون إلا بالربح العظيم ، وهم سيؤخذون من هذا الباب وحده وهذا يكسبني ثقة ستنمو على الأيام ، أصبح بعدها تاجراً ناجحاً . فهلا تظن أن هذه الخطة ستفوز وستتخطى بصاحبها الحواجز في بلد فقير كبلادكم ، ليست فيه ضرائب على الأجانب ، ولا حماية للوطنيين من هجرتهم ؟

قال الفتى : ربما صح ذلك ، بل هو أقرب إلى الصحة فعلا فليباركك الله . وصمت الفتى وطال صمته فأحس صاحبنا عبد القهار أنه قد آن له أن ينصرف ، فانصرف على موعد يجتمع فيه إلى الفتى ليتعلم العربية ، ويتعلم الفتى منه الإنكليزية ساعة في كل يوم .

كان الفتى يفكر في أن ما يقوله عبد القهار هو الحق كله ، فالتجار فعلاً في

بلاده لا يقنعون بالربح البسيط وإنما يطمعون في الربح الضخم العاجل ، وقد سأل أحد ذوي قرابته منهم فكان مما دافع به أن هذه البلاد بلاد استيراد واستهلاك ، وإن العيش فيها مرتفع ، ووسائل الحياة غالية ، وفي نفس الوقت فإن الشراء فيها بنسبة السكان يعد قليلا ، والتجار ـ وأغلبهم يتكلفون لأعمالهم التجارية الكثير من التكاليف ـ مضطرون إلى طلب الربح الكثير بالنسبة لتكاليفهم ولغلاء الحياة ، ولقلة الاستهلاك ، تذكر الفتى هذا وفكر في أن صاحبنا عبد القهار سيفوز حتماً إن جاء إلى الحجاز وفي رأسه خطة العمل ، فهو أولا رجل فرد يستطيع أن يعيش في كوخ وأن يلبس ثوباً واحداً وأن يأكل أي طعام شاء فيستطيع أن يزاحم التجار ويتغلب عليهم ، وفكر في أن مثل هذا النجاح سيغري الكثيرين من أمثال عبد القهار بهذه المزاحمة الخطرة وبهذه الوسائل ستصبح اقتصاديات البلاد وتجارتها العليا في يد أمثال عبد القهار صاحب من الأجانب الذين لا يفكرون في خير البلاد ولا في وسائل تقدمها ، وهنا ذكر أنه قرأ كثيراً عن الضرائب التي تفرضها الحكومات على الأجانب المقيمين في بلادها ، والقيود التي تضعها في سبيل الوافدين إليها حماية للوطنيين من زحفهم ومزاحمتهم وذكر في نفس الوقت أن بلاده ليس فيها أمثال هذه القوانين ، وهي باعتبارها دار هجرة للمسلمين جميعاً تفتح ذراعيها لاستقبالهم والترحيب بهم ، ومساواتهم بالمواطنين في كل شيء ، وانها بهذا تيسر لهم الهجرة إلى هذه البلاد والإقامة فيها ، والثراء من العمل بها ، ومزاحمة الوطنيين ، وذكر في نفس الوقت أن أغلب المهاجرين هم من الفقراء الذين لا يجدون سبيلاً للرزق في بلادهم فهم يفدون إلى هذه البلاد ليزاحموا أهلها على أرزاقهم وليقاسموهم الصدقات التي ترسلها إليهم الأمم الإسلامية والمحسنون من المسلمين ، وان كثيراً من هؤلاء فعلا قد نجحوا نجاحاً أشعر المواطنين بزحمتهم والضيق بنشاطهم وتمنى أن تسن الحكومة من القوانين ما يكفل لرعاياها حمايتهم من هذا الزحف الاقتصادي المستفحل ، وتمنى أكثر أن تفعل ما كان يفعله الفاروق رحمة الله ورضوانه عليه عقب كل حج ، إذ ينادي في مكة ـ يا أهل الشام شامكم ، ويا أهل اليمن يمنكم ـ فينصرف كل حاج إلى وطنه منجداً أو متهماً ، ولكن أنى يكون هذا والحكومة لا تستطيع التفكير في هذا الأمر لأنها تعتبر هذه البلاد دار هجرة للمسلمين عامة من كل حدب وصوب ، لهذا فهي تخشى أن تحد الهجرة أو تضع القوانين لتنظيمها .

- ١٠ -

استيقظ الفتى على صوت رقيق يناديه في أدب وتهيّب :

عرب صاحب ، عرب صاحب .

فإذا فتاة كأنما خُلقت الفتنة على صورتها ، وكانت ممرضة بالمستشفى ولكنه لم يرها قبل اليوم ، وكانت قد حضرت لتهيئة الغرفة فوجدته نائماً ، أو مغفياً في وقت لم يكن هو وقت المنام ، وكان صديقه الحجازي قد حضر من بومباي لتفقد أحواله ، والاطمئنان على صحته ، فسأل عنه فقيل إنه نائم فبعث إليه من يوقظه ، ووجد هذه الفتاة في طريقه فأرسلها إليه .

قالت الفتاة في انكليزية رقيقة : إن سيداً عربياً ينتظرك في حجرة المدير . فعرف الفتى أن رفيقه الحجازي هو الزائر ، فشكر لها إيقاظه ، وأخبرها أنه سيذهب من فوره إليه ، وأصلح الفتى من شأنه ليذهب لاستقبال صاحبه ، ولكن رؤية هذه الفتاة المليحة التي لم يرها قبل اليوم استخفته وأطربته وأيقظت في نفسه من عوامل البهجة والمرح ما أنساه كل شيء إلا هذا الوجه الصبوح الرقيق .

ذهب الفتى لاستقبال صاحبه في حجرة المدير وقضيا أغلب اليوم معاً فقد سمح له الطبيب إذ رأى بوادر التحسن عليه أن يقضي خارج المستشفى كل يوم ساعة أو بعض ساعة ليرفه عن نفسه ما يجد من ضيق بالبقاء الدائم هناك ، واطمأن صاحبنا إلى صحة أسامة وإلى رضاء مدير المستشفى وأطبائه عن حالته ، فتركه مودعاً في آخر اليوم ليقضي ليلته في نزل قريب ليسافر في البكرة عائداً إلى بومباي .

عاد الفتى إلى غرفته في المستشفى آملاً أن يمتع طرفه برؤية الممرضة الجميلة التي لا يعرف اسمها حتى الآن ولكن محاولته للبحث عنها أو رؤيتها لم تأت بفائدة ، فهو لا يعرف اسمها ليسأل عنها إن أراد السؤال .

وقضى الليل يحلم بها وبما يكون من أمره معها ، وكان فتى غزلاً كما قدمنا ، وكانت هذه أول فتاة تستحوذ على تفكيره وتصبح له شاغلاً لذيذاً منذ أن وطئت قدمه هذه البلاد ، وقضى ليلته في أحلام لذيذة متقطعة وصحا مبكراً فخرج إلى الحديقة يجوس خلالها ، والنسيم رطب ندي كأنما هو يقبل الزهر ، والأزهار متفتحة تنفح العطر ، ومماشي الحديقة تكاد أن تكون خالية من النزلاء ، وسار على غير

هدى ، متفتح النفس للحياة ، والشوق ، والحب . . . وقضى وقتاً طويلاً يجوس خلال الحديقة وساقته قدماه إلى مواضع لم يجس خلالها من قبل ، وإذا به وجهاً لوجه أمام فاتنة الأمس وقد جلست تحت تمثال كبير لبوذا أمام نافورة مياه جميلة ، ولم تكن في ثياب الممرضات في هذا الصباح وإنما كانت في ملابسها الوطنية ، وبدا شعرها الأثيل طويلاً جعداً يقرب إلى ركبتيها ـ وكان منثوراً خلف ظهرها ، كأنما يدنو ليقبل قدميها ، أو ليحوطها بهالة من هذا السحر الأسود الرقيق تبعد عنها العيون الشرهة ، والرغبات الشريرة ، والعشاق المدلهين ، وكانت تقرأ في كتاب قدر أنه الإنجيل وترتل ما تقرأ في صوت رقيق كأنه همس الطيور ، أو خرير الجداول أو وسوسة النسيم في الغصون ، بل كأنه مزامير داود . . فيما سمع عنها من قديم .

وقف الفتى مبهوتاً لا يريم . . . ولم تكن الفتاة قد أحست بمقدمه فقد كانت مستغرقة فيما تقرأ ، وحلا له أن يختفي خلف شجرة من أشجار النارجيل القريبة ليستمتع بهذه الفتنة ما وسعه الاستمتاع ، وليقضي في صحبة الفتاة ولو من بعيد أقصى ما يمكن من الوقت وتراجع إلى الوراء وفي تراجعه عثرت قدمه بغصن رطب فأحدثت هذه العثرة حركة أفزعت طائراً كان فوق الشجرة فتنبهت الفتاة والتفتت فإذا صاحبنا يحاول القيام من عثرته ، وقد لطخت الأرض المبتلة ثوبه ويديه فكان منظره داعياً للضحك والرثاء ، فابتسمت الفتاة في حياء ، ونهضت تمسح ما علق بثوبه من التراب الندي فاغتنم صاحبنا هذه الفرصة وحاول أن يطوقها بذراعيه فأفلتت منه غاضبة جازعة ، ووقفت على بعد منه ، ونظرت إليه نظرة فيها من الزراية والاحتقار والتأنيب ما لم يخطر لباله أن يتعرض له قبل اليوم ، وقالت ـ بعد فترة خالها دهراً ـ : لقد كنت أظنك مؤدباً ، أهكذا أنتم العرب ، ما أحقرك !!

ولم يحر الفتى جواباً ، فقد أدار لسانه فلم يتحرك ووقف منكساً ذليلاً ، مصفر اللون مرتجف الأطراف من الخجل والحياء ، واستدارت الفتاة في عظمة وإباء فأخذت كتابها وضمت إزارها وأصلحت ما تناثر من شعرها وانصرفت في هدوء ، دون أن تلقي عليه نظرة ، أو تلقي إليه كلمة واحدة ولو كانت كلمة تحقير . . . .

ووقف صاحبنا وكأنه لوح من الثلج ، أو تمثال من الخزي والخجل في هذه الحديقة الكثيرة التماثيل نسي المثال أن يبني له قاعدة ينصب عليها ، وبعد مدة تحرك وسار عائداًإلى غرفته ، وهو يقطر خزياً وخجلاً ، وأخذ يؤنب نفسه ويلومها ، كيف قابل أدبها بهذا الخزي الفاضح ، وكيف قابل إسراعها لنجدته بهذا التبجح الوقح ؟! وفكر في وسيلة يصلح بها خطأه أو يعتذر بها عما فرط فلم يجد لذلك وسيلة ، وهاله ما وقع منه ، وكبر في وهمه انها غلطة منه ، لا سبيل إلى إصلاحها ، وأعجزه أن يجد من يبوح له بسره ، ويفضي إليه بدخيلة نفسه ، وما لبث أن طرح هذه الفكرة جانباً، فإن من العيب أن يفضي إلى إنسان في هذا البلد بهذا السر المخزي الرهيب ، وخطر له أنها ربما ذهبت إلى مدير المستشفى فشكت إليه ما وقع منه ، وقدر أن هذا ربما كانت نتيجته الطرد من هذا المستشفى ولم يكن يهمه أن يطرد ، ولكن كان يهمه الّا يصل خبر هذا الأمر إلى كراتشي وإلى القائمين بأمره هناك فإن الموت خير له من هذا الخزي والعار ، وفكر أن يكتب إليها كلمة اعتذار ويوصلها إليها مهما كلفه الأمر فلعل في هذا ما يصلح الأمر ولو قليلاً ، ووصل إلى غرفته وكتب اليها بعد تفكير هذه الكلمات :

« لست أطمع في عفوك ، لقد أخطأت خطأ فاضحاً ، أعتذر بحرارة » ، وبقي الفتى وقتاً طويلاً وهو مرتبك ، ولم يعرف وسيلة يوصل هذه الورقة إليها فلم يكن يجرؤ على مقابلتها بعد ، ولكنه عزم أن يسلمها هي ـ ودون واسطة ـ مهما كلفه الأمر .

لم يذق الفتى في ذلك اليوم الطعام إلا لماماً ، ولم يرتح إلى ما كان يرتاح إليه من أسباب السلوى والمتاع ، وأخيراً تذكر أن إدارة المستشفى قد سمحت له بمغادرته للفسحة ساعة أو بعض ساعة ، فارتدى ملابسه على عجل ، وانطلق إلى المدينة لا يلوي على شيء ، وقضى في المدينة ساعة أو أكثر يجوس خلالها بفكر شارد ، وقلب جازع ، وعين لا تبصر شيئاً إلا هذا الندم الفظيع الذي جرته عليه جرأته على فتاة لا يعرف من أمرها شيئاً .

وعاد إلى غرفته بالمستشفى وحاول أن يقرأ فلم يستطع ، فقد كان حادث الصباح يتراءى له خلال السطور ، وكانت كلمات التحقير والزراية التي سمعها منها ترن في أذنيه كأنها الرعد ، ونظرة الاحتقار والتأنيب تتمثل له كأنها شواظ من النار

يلهب جسمه ورأسه المحموم. وطلب النوم فاستعصى عليه ، وأخذ الندم يفري قلبه فرياً وبعد وقت طويل أغفى إغفاءة قصيرة صحا بعدها وقد صفى ذهنه ، وعاودته طبيعته العملية وقال لنفسه بعد تفكير :

« لقد وقع ما وقع ، ولقد كانت غلطة كبرى ما في هذا شك ، ولكن سبيل الإصلاح متعذر ، كما أن هذا العذاب لا فائدة منه ، فلأحاول أن أعتذر ، وإن كان لا أمل في استعادة قلبها ».

ووقف ذهنه عند هذه الجملة الأخيرة ـ استعادة قلبها ـ أوَ كان قلبها لي حتى أستعيده ؟ وقال لنفسه وهو يضحك ، ان المسألة لم تكن أكثر من إعجاب حاولت أن أعبر عنه بطريقتي الخاصة فأخفقت فما داعي كل هذا العناء ؟ وما لي ولقلبها ؟ وهل كنت يوماً ممن يدخلون أمر القلوب في حسابهم ؟ سأقابلها غداً وأطرح لها الورقة فإن قبلت العذر فبها ، وإلا فلنهمل هذا الأمر ولنطرحه من حسابنا إلى الأبد .

وراقته هذه الفكرة ، وعاودته طبيعته العابثة اللاهية فقال لنفسه : ألا ما كان أحلاها وهي في ملابسها الهندية الواسعة وشعرها الأثيث يداعب قدميها الرخصتين ، ونسيم الصبح يداعب وجهها الرقيق ويغازل شعرها وثوبها ، وقال لنفسه انه كان معذوراً فمن ذا الذي يرى هذه الفتنة ويتجاهلها ، انه لم يفعل إلا ما توحي به الطبيعة ، الطبيعة الحية المتوثبة ، ولم تكن محاولته لتطويقها ، إلا تسبيحاً لهذا الحسن ، وتعبيراً عن إعجابه بهذه الفتنة التي صورت بشراً سوياً .

ونام وهو يفكر في هذا فرأى فيما يراه النائم أنها حضرت إليه في غرفته بالمستشفى فأعرض عنها متظاهراً بالغضب فأخذت تداعب شعره وعينيه وهي تهدهده بكلمات الدعابة والعطف ، وأفاق فرحاً فإذا منديل السرير هو الذي كان يداعب شعره وعينيه إذ وقع على رأسه وهو نائم فصوّر له هذا الحلم الجميل .

- ١١ -

انطلق الفتى إلى مكان الأمس بالحديقة وهو مملوء أملا في أن يجدها ويعتذر إليها وينهي هذا الأمر المعلق فوق رأسه كالسيف المصلت ، وخطر في باله أنه ربما لن يجدها فلعل فعلة الأمس أجلتها عن مكانها المختار ، وبعدت بها عن أن تتعرض

لما تعرضت له من قبل ، ولكنه سار غير آبه فلم يجدها فعلاً فعاد كاسفاً ، وفي أثناء عودته مر بالطريق المؤدي إلى البناء الخارجي فإذا بها قادمة إلى المستشفى ومعها امرأة عجوز أوصلتها إلى الباب وعادت من حيث أتت فتنظر له واجف القلب حتى حاذته فقدم إليها الورقة ولكنها لم تلتفت إليه فسقطت الورقة منه فسحقتها بقدميها ولم تنظر إليه، ورأى خادماً من خدم المستشفى قادماً نحوهما فانطلق في الطريق المعاكس ولم يلتفت إليها، وعاد بعد برهة فلم يجدها، وبحث عن الورقة كذلك فلم يجدها أيضاً، وخطر له أنها ربما تركتها فمن المؤكد أنها رأتها ولكنه رجح أنها لم تتنازل حتى بتمزيقها، وعاد يائساً كئيباً.

لم يعد بوسع أسامة أن يفعل شيئاً ، وقرر فيما بينه وبين نفسه ألّا يكلمها بعد اليوم والّا يتعرض إليها ، وأن يبتعد ما استطاع عن طريقها حتى لا يراها ، فإن احتقارها له قد أثار نفسه ، وإن كان لم يخلها ـ نفسه ـ من الذنب ، ولكنه قال وهو يحدث نفسه : هبني أخطأت ، وهأنذا قد اعتذرت فما الداعي لكل هذا التحقير وما الموجب لكل هذه الإساءة المتكررة ؟ أما والله انها لفتاة صلفة متعجرفة ، سأهملها ولن أقابلها بعد اليوم ، كأنما كان أمر إهمالها ومقابلتها بيديه ، ونسي صاحبنا أنه إنما لقي جزاء ما قدمت يداه من حمق وتبجح ومجون .

حاول الفتى جاداً بعد هذا الحادث أن ينسى هذا الأمر فعزم أمره على أن يتجنبها ما استطاع والّا يقابلها جهده ، والّا يذهب إلى حيث رآها بالحديقة واتفق مع عبد القهار على أن يقضيا الضحوة في مدارسة الإنكليزية والعربية ، وأن يخرجا للفسحة في المدينة بعد العصر ، وأن يتفرغ في الليل ساعة أو بعض ساعة لمراجعة ما درسه من الإنكليزية وإعداد درس الغد ، وسار على هذه الطريقة أياماً وأياماً وهو يقسر نفسه على نسيان الفتاة وما كان من أمره معها ، وظن أنه بهذا قد نفض يده من هذه الحادثة العابرة نفضاً تاماً .

كانت مدارسة الفتى العربي وزميله الهندي شاقة ومضحكة في آن معاً ، فلم يكن الفتى يعرف الإنكليزية معرفة تساعده على تفهيم صاحبه الهندي ما يريد إفهامه هو من معاني الكلمات العربية التي تعرض لهما خلال الدرس ، كما كان صاحبنا الهندي لا يعرف من العربية إلا كلمات قليلة لا تساعده على إفهام صاحبه معاني الكلمات والجمل الإنكليزية التي تعرض لهما في الدرس ، وكانت معرفة الفتى

بالأوردية كمعرفة صاحبه الهندي بالعربية لا تتعدى كلمات الضرورة والمجاملة والسير في الطريق ، فكان كلاهما يشرح لصاحبه الكلمة باللغات الثلاث إن استطاع أو بلغتين وكانا يستعينان بالقواميس التي لديهما ، وبالإشارات أخيراً ، وكان هذا مجهوداً شاقاً ، فليست كل الكلمات التي تعرض لأحدهما والتي يعرفها في اللغة التي يحذقها بمستطيع نقلها إلى صاحبه من القاموس أو إفهامه إياها بالإشارة ، ولكن يمكن القول إن ذخيرة الفتى العربي من الإنكليزية كانت أكثر من ذخيرة صاحبه الهندي من العربية ، ولهذا كان هو أجدى على صاحبه وأنفع له ، كما أن النية الصادقة من الفتى في الإفادة من الدرس والانهماك فيه ، والانشغال عن نفسه به ، وسيره خلال المدينة وتعرضه لمحادثة من يلقاه بها قد ساعده كثيراً على السير في الدرس خطوات واسعات ، وكانا إذا أعياهما معنى كلمة من الكلمات خرجا معاً في الأصيل فذهبا إلى البلدة ليدل أحدهما صاحبه على معنى اللفظ المطلوب بما يعرض لهما من مناظر وصور وأمتعة وأناسي ، ولم يكن هذا بالطبع إلا فيما يختص بالأشياء المادية فقط ، أما الأشياء المعنوية فلم يكن تحديدها سهلاً ولا ميسراً ولم تكن الرؤية مما يوصلهما إليه .

- ١٢ -

أتراه يحبها ؟ هذا هو السؤال الذي كان يدور بخلد أسامة كلما تذكر فتاته « كيتي » وكان هذا هو الاسم الذي تدعى به فيما سمعه عرضاً ذات يوم وحاول ألاّ يلقي إليه بالاً .

نعم كان يسأل نفسه هذا السؤال : ـ أتراني أحبها ؟ ـ وكانت ذكراها ماثلة أمام عينيه ، وكانت صورتها لا تبرح خياله ، وإن كان قد حاول جاهداً أن يقصي هذه الصورة عن عينيه ، وأن يمنع الذكرى أن ترتسم في خياله وإن كان قد حرم على نفسه السير خلال الحديقة في الصباح والمساء ، ولكنه كان يراها في مماشي المستشفى وحجراته فيتفادى رؤيتها إن كان إلى ذلك سبيل فينثني عائداً إن كانت هي مقبلة ، أو ينطلق في الطريق المعاكس لوجهته إن كان هو في سبيله إليها ، ولم تكن هي أقل منه تفادياً للقاء ، وربما التقى بها أحياناً وجهاً لوجه ولم يستطع أن يتفادى لقاءها مهما كلفه الأمر فكان يغض من بصره أو يتشاغل عن النظر إليها بالحديث مع من يكون معه ، وكان هذا يفري قلبه فرياً ويصبغ وجهه بحمرة قانية

نتيجة ما يتكلفه القلب والعصب من جهد . وكان في أقصى ضميره يتطلب رؤيتها ويتمناها فإذا ما لقيها عرضاً تفادى هذه الرؤية جاهداً وفي قلبه من الأسى والحزن ما يطير بنفسه شعاعاً ويذهب بها بدداً .

وكأنما لاحظت الفتاة تأدبه معها وتفاديه لقاءها فخففت من غلوائها ولم تعد تظهر له من الزراية ما كانت تظهره قبلا كلما لقيته ، ولكنها كانت تتحاشى النظر إليه ان التقت به ، وكانت معارف وجهها لا تنم إن التقيا على أنها تعرفه أو أن لها معه شأناً .

وكان الفتى قد شغله أمرها فلم يكن يفكر إلا فيها ، ولم يكن ينظر بعين خياله إلا إلى صورتها الحلوة المحببة ، وكانت تتعاقب صورها على خياله كما تتعاقب الصور في شريط سينمائي فتبدو له أول ما تبدو وهو يستيقظ على صوتها الرقيق تناديه ـ عرب صاحب-وهي في ملابس الممرضات البيضاء كأنها ملاك هبط من السماء بأجنحة من النور والصفاء ، ثم يراها وهي ترتل الإنجيل أمام النافورة الجميلة وتحت تمثال بوذا ، وشعرها الأسود منثور خلف ظهرها وعلى جوانب أصداغها والنسيم يداعبه ويلاعبه، ثم يراها وقد نهضت لتنفض عنه التراب ولتساعده على القيام من عثرته ، ثم يرى في لمح الطرف ما كان منه ومنها ومن نظرة الزراية والاحتقار والغضب الشديد فينسيه هذا المنظر الأخير هناءاته السابقة بالمناظر الجميلة الأولى المحببة ، وكان لا يسأم تكرار هذه المناظر واستعراضها في خياله كلما خلا إلى نفسه ، كما أن كلماتها كانت ترن في أذنيه كلما وصل في تذكره واستعراضه إلى هذا الفصل الأخير ، ويمر بعد هذا مستعرضاً ما كان منها في اليوم التالي ، والمرات القليلة التي يراها فيها فيتفادى رؤيتها أو يلقاها فلا يستطيع أن ينظر إليها . وكان لا يذوق النوم إلا غراراً في بعض الليالي ، فقد كانت الصورة تتعاقب والذكرى حية ماثلة وربما نام في أول الليل ولكنه ما يلبث أن يستيقظ في جوف الليل ليستعرض أمره معها ، وذات ليلة أخذ في مثل ذلك وقد ثقل عليه الأمر وكان مستلقياً على سريره فانتفض قائماً وجلس على السرير وأخذ يسأل نفسه هذا السؤال :

أتُراني أحبها ؟ وأخذ يحلل أمره معها تحليلاً دقيقاً لا يتجاهل فيه شيئاً ولا يغْفل عن شيء ، لقد كانت فتاة جميلة ما في ذلك شك ، بل هي ساحرة أكثر مما

هي جميلة ، ولكنها ليست أولى الجميلات اللواتي رآهن ، ولا أخراهن ، فقد أُتيح له في انطلاقه في المدينة في هذه الأمسيات أن يرى فتيات كثيرات هن بالتأكيد أكثر أناقة وصقلاً ، وقد وجد السبيل ممهداً أمامه لمعرفتهن ، ومحادثتهن وربما إلى أكثر من هذا ولكنه لم يجد من نفسه ميلاً إلى أن تتعدى العلاقة بهن فوق الحديث والنظر . فقد كانت هي دائماً تظهر أمامه ليقارن بينها وبينهن ، بين جمالها الطبيعي الذي لا تزينه إلا الطبيعة الصادقة البسيطة وبين جمالهن الذي يلعب الحلاق وتلعب الأصبنة والأدهنة فيه دوراً كبيراً ، بين أدبها وتحفظها ، وجرأتهن ومجونهن ، بين ملابسها الوطنية البسيطة الرخيصة ، وملابسهن الحريرية الغالية الأنيقة ، فكانت هذه المقارنة ، بل وجود صورتها ، يمحو كل الصور الأخرى كما يمحو نور الفجر ظلمات الليل البهيم .

سأل نفسه هذا السؤال وكرره على نفسه وخرج من هذه المحاولة بالاعتراف بحبه لها ، وحنينه إليها ، وقال لنفسه في ما قال إنه لا فائدة من هذه المغالطة، وإن المسألة لم تعد مسألة حادث عرضي فهو يشعر أنه قد ربط إليها ، وأنها نزلت من نفسه منزلا لم ينزله أحد من قبل ، ولا يمكن أن ينزله أحد من بعد ، وأن حادثه معها كان فظيعاً ، وأنها فتاة على نمط خاص غير هذا النمط الذي أُتيح له أن يعرفه حتى الآن من الفتيات الماجنات ، وقال لنفسه إنه ربما لو عرفهن قبل أن يعرفها لما كان لها في نفسه شأن ، بل ربما لو اقتصرت معرفته إياها ولم يحدث منه ما حدث لما تطورت هذه الحادثة إلى هذا الحب الجارف المشوب بالندم ، والذي لا أمل فيه . وكان تحليل عاطفته أنها أحسنت إليه فقابل إحسانها بالإساءة ، وأدبها بالتبجح فكانت هذه الغلطة تزيد النار في قلبه ضراماً ، والأسف في نفسه هياماً وكان يتحرق لإصلاح ما وقع منه موهماً نفسه أنه لن يطمع إلا في رضائها ، ولكن هذا كان مستحيلاً فيما يبدو له إلا أن تقع حادثة . . . وأخذ يستعرض في ذاكرته ما قرأ من روايات غرامية ، وكيف كانت الحوادث دائما هي التي تمهد للحب أو تخلقه في مثل رد الطرف بين البطل والبطلة ، تتعرض البطلة لحادث يكاد أن يودي بحياتها فيتقدم البطل وينقذها فتشعر أنها مدينة له بحياتها وهنا يكون الحب ! وتمنى أن تقع حادثة يتقدم فيها كبطل ، ولكنه رأى أن حبه أعظم من هذا فهو يضن بها حتى على التعرض لخطرات النسيم أو لوخز شوكة في شجرة ورد ، فكيف يريد أن تتعرض للأخطار كما يقرأ في الروايات ، ورأى أن أغلب الحوادث في هذه الروايات مفتعلة

متكلفة ، فليس كل حبيبة يتعرض لها أسد كاسر ، أو فيل ثائر ، أو فرس جموح ، أو تحاول الانتحار فترمي بنفسها في الماء ، أو تتعرض للقطار فترمي بنفسها على القضبان ، وليس كل حبيب يخرج في هذه اللحظة المناسبة ليقوم بهذه البطولة السينمائية فإن الأمور بين الناس تسير في الأغلب الأعم سيراً طبيعياً ، لا تعترضه هذه الحوادث إلا لماماً ، وفي الفينة بعد الفينة . ولماذا لا يكون الأمر أقرب إلى الطبيعي منه إلى هذا التكلف غير المستساغ ، لماذا لا يكون الحب دائماً تجاذب قلبين ، وتجاوب روحين ، وشوق نفسين ومتعة عينين ؟؟ كل ما في هذه الحياة ـ وفي هذا الزمن خاصة ـ يمهد السبيل إلى هذا بين شابة جميلة وشاب قويّ في سن الشباب والحب .

ولكن ما فائدة هذه الفلسفة وكيف السبيل إليها ؟ وإذا كان لا بد من حادثة ـ كما يريد الروائيون أن تكون بل كما يريد ظرفه الخاص أن تكون ـ فلتقع هذه الحادثة له هو بالذات ، فإنه هو الأجدر بالتعرض للأخطار جزاءاً وفاقاً على ما بدر منه في حق هذه الفتاة التي لا تستحق إلا التبجيل والحب والإجلال . وخطر له أنه ربما لو لم يقع منه ما وقع لسارت الأمور سيرها الطبيعي ، ولأفضت بها إلى الحب ولبادلته إياه ، أو لم تجد في قبوله صديقاً على الأقل من بأس ، فما أحوجه الآن إلى صداقتها وإلى عطفها وإلى أن يستظل بظلها ، وينعم بهذا الوجه الصبوح ، وبهذه الروح الرقيقة الهادئة الساحرة .

أما الآن وقد وقع ما وقع فلا سبيل إليها ، ولا سبيل إلى إصلاح ما أفسده بحمقه ومجونه ، وليس من المنتظر بالتأكيد أن تقع له أو لها حوادث روائية يقوم فيها هو بدور البطل المنقذ أو تقوم هي فيها بدور الملاك الحارس . فليبعد هذا العبث عن ذهنه ، وليترقب ما يأتي به الزمن فهو وحده الكفيل بإصلاح ما جنت يداه .

ولكن أتراه بمستطيع صبراً وهي هي دائماً بين عينيه ؟ في يقظته ومنامه ، في مسائه أو صباحه ، في درسه وقراءته ، في حديثه وصمته ، في كل ومضة عين ، ولمحة ذهن ، وخفقة قلب ، وحديث نفس . لقد أصبحت دنياه التي لا مفر منها ، وأصبحت له شاغلاً ما يبرح ذهنه وخياله ، وقال لنفسه إن القرب يزيد اللوعة ويكون أدعى للافتتان ، ولإثارة النار وزيادتها اشتعالا ، ولإضرام الفؤاد ، وخصوصاً وأن هذا القرب يصاحبه الحرمان ، ويصاحبه فقدان الأمل ، فلماذا لا

يطلب البعد فلعلّ فيه عزاءً ، ولعل فيه سلوى ، ولعله يشغله عن التفكير فيها ، وودَّ لو أمكنه أن يغادر هذا المستشفى إلى نزل آخر . بل ودَّ لو استطاع البعد عن هذه المدينة نهائياً إلى أجل يختبر فيه نفسه ويمتحن به قلبه ، فلعله منصرف عنها إلى سواها . وقد قرأ فيما قرأه عن هذا الحب ـ الذي لم يعرفه من قبل ، والذي كان يظنه خيالاً في خيال ووهماً مصوراً لا وجود له في الحياة ـ قرأ أنه لا يقضي على الحب إلا الحب ، وأنه كالخمر لا يداوى إلا به . وقال لنفسه إنها ما دامت أمامه يراها ويهيم بها فلا سبيل إلى أن يحب غيرها فإنها تبرز إلى جانب كل صورة وتظهر عليها وتنسيه كل شيء إلا نفسها ، فليتطلب البعد وليداو الحب بالحب فإنه لا فائدة من هذا العذاب الذي يراه كالحلقة المفرغة لا يبدأ إلا ليتجدد ، ولا يذهب إلا ليعود أقوى ما يكون عذاباً ، وأشد ما يكون ضراماً .

وعوَّلَ على أن يذهب في الصباح لمقابلة المدير واستئذانه في ترك المستشفى والسكن خارجه ، وكان قد وعده بذلك من قبل ، أو على الأقل السماح له بالذهاب إلى القرية المجاورة لأسبوع واحد إن كان لا يرى أنه قد آن له أن يغادر المستشفى إلى نزل آخر .

هكذا فكّر الفتى وقدّر ، ولكن ما وقع في اليوم التالي كان شيئاً لم يخطر ببال الفتى ، ولم يدخل له في تفكير أو تقدير . وهكذا تأبى الحوادث أن تسيّره كما يشاء ، ولكن وفق ما تشاء ، فلننتظر ساعة أو ساعات حتى نستقبل الصبح ونستقبل معه ما يطرأ من جديد .

ـ ١٣ ـ

استيقظ الفتى وكان قد تأخر في نومه بعد سهر الليلة البارحة على صوت حركة رقيقة في الغرفة ، وإذا فتاته التي لا ينكرها في ملابسها البيضاء تناديه : ـ عرب صاحب ـ وفتح عينيه وفركهما جيداً ليرى إن كان الأمر حقيقة أو حلماً ولكنها كانت فتاته حقاً وأفضَت إليه في أدب وحزم معاً أن المدير يدعوه لمقابلته حالاً . وانثنت خارجة من حيث أتت ولم يستطع صاحبنا إلا أن يفتح فاه كالأبله وأن يودعها بنظرات شاردة ، وأفكار مضطربة ، ولم يفكر في المدير لماذا يريده ، وإنما فكر في المعجزة ، معجزة دخولها إلى غرفته وإيقاظه من منامه ومناداته مرة أخرى ، والكلام معه ولو لأداء رسالة قصيرة أو تبليغ أمر صارم . ونسي أنها ليست إلا

ممرضة في هذا المستشفى لا تملك مخالفة أمر تؤمر به ، أو إهمال طلب يطلب منها ، ولكن أهي في نظره ممرضة فقط ، إنه ينظر إليها وكأنها ملكة عظيمة جليلة لها كل هيبة الملكات وقوتهن وجلالهن ، وينظر إلى نفسه بالنسبة إليها وكأنه عبد ذليل فيه ذلّ كل عبد وخضوعه ، وبعد لأي أفاق لنفسه لماذا لم أغنم الفرصة فاعتذر لها وأتوسل إليه أن تعفو وتصفح ، وأبثها لواعجي وما أعاني ، حقاً إني غبي بليد! وأخذ ينحي على نفسه باللائمة ، ويلهبها سياطاً على إضاعة الفرصة التى لن تسنح مرة أخرى ، وأخيراً فكر لماذ يا ترى يريده المدير لعلها شكت أمرها إليها؟! ولكن الأمر مضى عليه زمن طويل ، إذاً فلماذا يريده ، وأخيراً رأي بما في طبيعته من حب للبنت أن يذهب للمدير ثم يتفرغ بعدها للتفكير فيما يتطلبه الموقف من جميع أطرافه ، وجمع أطراف شجاعته ، وانطلق إلى غرفة المدير وإذا به يجد نفسه فيها وجهاً لوجه أمام صاحبه الحجازي الذى أوصله إلى هذه القرية والذي عرفه إلى مدير المستشفى وأسلمه إليه ، وتعانقا وسرّ الفتى برؤية صاحبه كما سرّ صاحبه برؤيته . وقال لقد بشرني حضرة المدير بشفائك وقد رغبت أن أراك حال قدومي وكنت في طريقي إلى غرفتك فوجدت الممرضة التى أرسلتها إليك فعهدت إليها بإيقاظك وحضرت إلى هنا في انتظارك ، وقد سرّني أن أراك بخير وأن أراك تنام حتى يضحى النهار ولكن مع هذا أرى أنك ما زلت ساهماً نحيلاً وفي حاجة إلى كثير من الراحة والعناية؟

كان رفيق الفتى يقول هذا كله دون أن يترك لصاحبنا فرصة للإجابة . ولكن الفتى كان سعيداً حقاً بأن يعرف أن المدير لا يريده وإنما الذي يريده هو هذا الرفيق الطيب الذي يرحل هذه الرحلة الطويلة ليراه ويتفقد أمره ، ويطمئنّ إلى صحته وتقدم شفائه ، وكان سعيداً حقاً بأن أتاح له مرة أخرى دخول صاحبته إلى غرفته وإيقاظه من منامه وسماعه صوتها بعد أن بعد العهد به عن كل هذا منها .

وكان المدير يصغي إلى الفتى ورفيقه ولكنه لم يكن يفهم عنهما شيئاً فقد كانا يتحدثان بالعربية التي لا يعرف منها كلمة إلا ما يتندر به مع الفتى كلما لقيه من ألفاظ التحية التي حفظها عن الهنود من المسلمين قبل العرب . والتفت المدير إلى الفتى وقال له : إنه يسرني أن أخبرك أنك ستتمتع مع صديقك هذا بإجازة أسبوعين خارج المستشفى بل خارج المدينة إن أردتما ، وإني لأرى أن تغيير الهواء وتجديد المناظر قد يسرك ويفيدك وأظنك بهذا تحقق رغبة طالما أفضيتَ إليَّ بها ، وطالما

أجَّلتها لك ، ولكني أسمح لك بها الآن كتجربة بصحبة صديقك هذا فإن أسفرت التجربة هذه عن النجاح الذي أتوقعه فقد نسمح لك نهائياً بترك المستشفى والنزول خارجه وإلا أرغمناك على قضاء مدة أخرى في ضيافتنا التي بدأت تضيق بها كما أظن . وابتسم الفتى وتلعثم في الإجابة فهو لا يريد الآن وفي هذه الظروف بالذات ترك المستشفى وقد قربت آماله أن تدنو ولكن رفيقه لم يدع له فرصة للكلام أو التفكير فقد قال له معقباً على كلام المدير : لقد كنت قادماً لزيارتك وقضاء أسبوعين للراحة والاستجمام فأشار عليَّ حضرة المدير أن أصحبك في هذه الإجازة وقد سرَّني كثيراً أن يسمح لك بقضاء هذه الإجازة معي فلتعدَّ ما يلزم لهذه الرحلة على عجل فإنا سنقضي النهار في نزل في المدينة ثم نبرحها قبل الغروب إلى القرية المجاورة وما تلاها من القرى في هذا الريف الجميل .

كان الفتى يهيىء في حقيبته ما يحتاج إليه لهذه الرحلة من ملابس وكتب وأمتعة ضرورية وكان منصرفاً بكليته إلى هذه العملية بصورة آلية بينما كان تفكيره منصرفاً إلى شيء آخر بعيد كل البعد عن الأمتعة والملابس والكتب ، بل كان قريباً كل القرب إلى ذلك ، فهذه الأشياء تذكره بالرحلة التي تنتظره الآن ، والتي فوجىء بها مفاجأة أقرب ما تكون إلى العنف ، والتي كان يمكن أن يكون بها مسروراً لولا حادث الصباح المعجز في نظره ، حادث دخول الفتاة مرة أخرى إلى غرفته وإيقاظه واستدعائه إلى غرفة المدير ، هذا الحادث أعاد له الأمل في استعادة قلبها أو رضاها على الأقل ، أو تحول العلاقة إلى مجرى آخر جديد إن لم يكن صداقة فليكن معرفة ، وهو على أي حال ليس عداءً أو عنفاً كما كان من قبل . ولكن هذه الأفكار لم تكن لتغني فتيلاً في تأخير الرحلة عن موعدها المرسوم ، كما أن التمني لم يكن يغيّر شيئاً مما قدّر ودبّر فليستسلم لهذه الرحلة كارهاً أو راضياً فلا بد له من عودة ، وهو يعود أكثر أملاً في استعادة القلب النافر ، وفي بناء العلاقة على أساس أقوى وأمكن ، وكان صاحب الفتى قد حضر إلى غرفته يستعجله ، واستدعى معه من الخدم من يحمل متاعه .

ومضى الفتى وصاحبه إلى خارج المستشفى فوجدا سيارة في انتظارهما وقد وضع الخدم بها متاعهما فانطلقا أو انطلقت بهما وفي نفس الفتى حاجات وفي قلبه لبانات .

قضى الفتى ورفيقه ليلتهما في النزل الذي نزلا به أول ليلة دخلا فيها إلى القرية وانطلقت بهما السيارة في البكرة الندية إلى القرية المجاورة فقضيا يومهما بها .

لم يكن في هذه الرحلة أي حدث يستحق التسجيل فالقرى متشابهة تقريباً في مناظرها ، والحياة فيها تجري على نمط طبيعي معقول ، والمناظر تكاد أن تكون هي نفس المناظر التي ألفها الفتى في هذا الريف الهندي الجميل ، وكان صاحب الفتى لا يدع وسيلة من وسائل التسلية والسرور إلا أدخلها على نفس الفتى ، ولكن فتانا كان في شغل عن هذا كله ولولا حياؤه من صاحبه لفرَّ عائداً من أول يوم ولاختصر هذه الرحلة اختصاراً أو ألغاها إلغاءً إن كان إلى إلغائها من سبيل ! ومع هذا فقد تظاهر بالسرور ما أمكنه ليشارك صاحبه سروره بالرحلة المشتركة ، ومضت الأيام تباعاً وهما يجوبان القرى في كل يوم ويتنقلان بين حدائق ناضرة بهيجة ، ومناظر ساحرة بديعة حتى قاربت الأيام المقررة لهذه الرحلة على الانتهاء وفي ذات يوم بينما كان صاحب الفتى نائماً في غرفته بالفندق وصاحبنا يحاول النوم فيستعصي عليه أخذ الفتى كتاب الإنكليزية الذي يدرس فيه وفتحه فإذا به يجد فيه ورقة صغيرة كان فيها ما يأتي :

أيها السيد العربي . . .

أودُّ كثيراً ، وأنت تتهيأ لمغادرتنا إلى بلادك أن تعلم أنه إن كان قد بدا لك مني شيء من القسوة أثناء إقامتك هنا فإنما كان ذلك ضرورياً بالنسبة لموقفك مني . ولا أريد أن تعود إلى بلادك وفي نفسك شيء من الموجدة عليَّ .

أصدق دعائي وأطيب تمنياتي

المخلصة كيتي

لم يفهم الفتى ما جاء في هذه الرسالة القصيرة لأول وهلة وظنّ أنها ربما وقعت خطأ في كتابه وقد تكون موجهة إلى غيره ، ولكن الخطاب كان موجهاً إلى السيد العربي ، وكان كل ما فيه ينبىء أنه من صاحبته ، وطار الفتى سروراً وأخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً ، وتدفق الدم إلى وجهه وأخذ ينظر إلى نفسه في المرآة ويقفز ضاحكاً كأنه طفل صغير يستطير فرحاً بلعبة جديدة وقرأ الرسالة مرة ومرة وقبَّلها ما شاء الله له أن يفعل ثم وضعها بعناية كبيرة في جيبه الداخلي قريباً من القلب كأنما هي كنز ثمين .

وأصبح من همّ الفتى أن يعود إلى القرية وإلى المستشفى وإلى « كيتي » الحبيبة بأسرع ما يمكن من زمن ، وأخيراً آن لصاحب الفتى أن يستيقظ من نومه وأن يجتمعا إلى مائدة الشاي بعد العصر كما تعوّدا واحتال الفتى ليفهم صاحبه أن من الخير لهما أن يعودا من حيث قدما . وقرر صاحب الفتى أن تكون العودة في الصباح التالي ، وإنه لقريب .

- ١٤ -

الزمان ربيع ، والوقت ضحى ، تسطع فيه الشمس ، ويهب النسيم مشبعاً بالعطر والزهر، والمستشفى في أوج حركته ونشاطه ، ونزل الفتى وصاحبه من السيارة فاستقبلهما الخدم بالتحية والتكريم ، يخصون ضيفهم العربي الكريم بالكثير من الحفاوة والرعاية فقد كان كثير البر بهم ، حسن الدعابة معهم ، وكانوا قد ظنوا كما ظنت « كيتي » أنه راحل إلى بلاده عنهم فكم كانت فرحتهم بعودته بعد أيام قلائل ، وكم كانت فرحة قلبه بهذه العودة السعيدة إلى مهد الهوى والمنى .

ومضى الفتى وصاحبه يحف بهما الخدم يحملون الأمتعة في طريقهم إلى غرفة الفتى وإذا صاحبتنا كيتي تلقاهم في الطريق ، ولم تكن دهشتها بأقل من دهشة الآخرين بهذه العودة المبكرة أو غير المرتقبة ، وكانت آثار الانفعال ظاهرة في وجهها بشكل لا يدع مجالاً للريبة أو الشك ، وكانت انفعالاتها متباينة فيها الدهشة والسرور ، والخوف والدهشة لاستقبال عائد غير منتظر ، والسرور بهذا اللقاء ، والخوف من ماذا . . . أمن المجهول ؟ أم من الحب ؟ أم من القدر الذي يتنظر بالقلوب ؟

ووقفت الفتاة جامدة كتمثال وتقدم إليها رفيق الفتى فعرفها وحياها فاضطرت إلى قبول تحيته وردّها في أدب وقال الرفيق : هأنذا قد أعدت ضيفكم مرة أخرى ، وقد ظننتم أنه لن يعود فيما يبدو لي اليوم ، ونظر إلى الفتى فإذا هو بادي الارتباك ، مصفر الوجه ، مرتجف الأطراف ، قال الرفيق في لهفة :

ما بك يا صاحبي أتحس شيئاً ؟ قال الفتى ـ ونظر إلى صاحبته من طرف خفي ـ : كلا ، إنما هو دوار بسيط أحسست به الآن ومن الخير أن أذهب إلى السرير لأرتاح قليلا . قال الرفيق : بل نستدعي لك الطبيب ليراك . وأشار إلى

الفتاة أن تذهب لاستقدام الطبيب ليوافيهم في غرفة الفتى ونظرت كيتي إلى أسامة ونظر أسامة إليها وانطلق كل منهما في سبيل .

- ١٥ -

كانت هذه العودة وما تلاها من حوادث قصيرة بدء علاقة جديدة بين الفتى وصاحبته تختلف عما كان بينهما كل الاختلاف ، فلم تكن الفتاة لتلقى الفتى من بعد بما كانت تلقاه به من زراية أو تجاهل ، ولم تكن تتعمد البعد عنه كلما لقيته . بل كانت تلقاه باسمة في رقة ، وكان يقابلها في أدب جم ، وإن كان لا يخفى سروره بها كلما لقيها ، وكان هذا السرور يظهر لعينيها النفاذتين كما لا يظهر لأي إنسان .

ولسنا في حاجة إلى أن نقول ان الطبيب لم يجد بالفتى ما يدعو إلى القلق وأشار عليه بالراحة والهدوء سحابة اليوم ، وانصرف رفيق الفتى عائداً إلى بومباي بعد أن اطمأن إلى صحة الفتى وإلى أن ما به كان عارضاً وقتياً قد زال بعد حين .

لم يجرؤ أسامة أن يتحدث إلى صاحبته في أمر الورقة التي لقيها وكانت هي تتساءل بعينها كلما لقيته أتراه قرأ الورقة أو وجدها ؟ وكان هو كثير التردد في الإقدام على الحديث في المسألة خشية من قطيعة جديدة . وكثر لقاء الفتى والفتاة في الأيام التالية خصوصاً وأن الفتاة قد نقلت للخدمة في الجناح الذي يشغل الفتى غرفته منه ، وأصبح من واجبها أن تراه يومياً وأن تأخذ مقياس حرارته وتعنى بأمره . وفي اليوم الثالث لعودة الفتى إلى المستشفى بينما كان مستلقياً على سريره وبيده كتاب الإنكليزية دخلت كيتي وبيدها مقياس الحرارة وطلبت منه أن يضعه في فمه فوضع الكتاب جانباً وإذا بالرسالة تظهر منه وكانت هي تديم النظر إلى الكتاب من حين أن رأته في يديه وأخرج الفتى الورقة وكأنه لم يقرأها من قبل ونظر فيها ثم أدار النظر إلى الفتاة وكأنه لم يقرأ الرسالة قبل اليوم فوجدها تبتسم في ارتباك وتودُّ لو أمكنها استرجاع هذه الرسالة ، فتبسّم الفتى وقال :

إنني أنا الذي يجب أن أعتذر يا كيتي . فقد كان ما وقع جنوناً وقد أسفت عليه أعظم الأسف . قالت : فلنترك هذا الأمر جانباً فلا خير في العودة إليه .

قال الفتى : كلا بل الخير في أن نعود إليه ، فقولي يا صديقتي أعفوت عني حقاً ؟ فإني لن أبرأ من علتي حتى أعرف أنك صفحت ونسيت كل ما مضى .

قالت : فإني قد عفوت فلتبرأ ولتعد إلى أهلك وبلدك إن كان السماح كفيلاً لك بالبرء والشفاء .

قال الفتى : أما هذا فلا ، ونظر إليها نظرة تجلى فيها كل حبه العظيم . نظرة فيها الضراعة والأمل والخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ونظرت هي إليه في خفر ، وصمتا وتكلم بينهما الهوى .

قال الفتى ـ وقد عرف عنها ما كان يجهله أو يشك فيه ـ :

أوَ تريدين حقاً أن أعود إلى بلادي وأهلي ؟

قالت الفتاة : ولِمَ لا ؟ أليس من حق الغائب أن يعود ، بعد أن يقضي وطره من الغياب ؟!

قال : حقاً ما تقولين ، ولكن لي هنا أوطار ما أظنها تنتهي في يوم من الأيام . لقد كنت على وشك أن أطلب العودة إلى بلدي لو سمح بها الطبيب ولكني الآن لا أفكر في العودة يوماً من الأيام .

إنني هنا مقيد إلى هذه الأرض الطيبة بقيود من ذهب وخيوط من حرير ، ولن يستطيع إنسان مهما بلغت قوته أن يحطم القيود الذهبية أو يقطع برغبته خيوط الحرير . لقد قرأت رسالتك يا كيتي وأنا مع صاحبي في الريف والدنيا كلها سوداء في عيني ، فكانت هذه السطور القليلة نوراً لعيني وبرداً على قلبي وسلاماً . كوني على ثقة أن الفتى الماجن الذي تعرفينه قد زال من الوجود ، وأنا منذ أن عرفتك وعرفت منك ما عرفت شخص آخر مختلف عن أسامة الماجن كل الاختلاف .

إنك أول فتاة علمتني أن أحترمها ، فأنا مدين لك بما ترين من أدبي واتزاني ، لقد نلت مني في ساعة واحدة ما لم ينله أبي ومربّي وأساتذتي في أعوام وأعوام ، ولن أطمع منك في أكثر من الصداقة . . . الصداقة الخالصة والعطف . فقولي بالله هل تضنّين بصداقتك على غريب مريض ؟

قالت : إنني أنا الأخرى أسفت على ما فرط مني تجاهك ، لقد كان واجباً أن ألقاك بالقسوة ولكني أدركت فيما بعد أني قسوت أكثر مما يجب فخالجني لذلك شيء من الأسف . وفي ذات صباح لقيني رفيقك العربي فطلب أن أدعوك إليه في غرفة

المدير وفهمت منه أنكما راحلان فكتبت إليك هذه السطور على عجل لتقرأها يوماً ما فتعفو عن قسوتي ، فكان كل عزائي أني بهذا قد كفرت عن قسوتي ، ولم أكن لأظن أنك ستعود هكذا سريعاً وإلّا . . .

قال الفتى : وإلّا ماذا ؟

فضحكت الفتاة وقالت : وإلّا لما كنت كتبت شيئاً .

قال : فإني أحمد الله إذن على هذه الرحلة التي استرجعت بها رضاءك عني وحدبك عليَّ .

وكان الحديث قد طال ونسيت الفتاة أن واجبها ينتظرها في غرف كثيرة فنظرت إلى ساعتها في دهشة وقالت : لقد مضى الوقت وأنا لم آخذ حرارتك بعد وعليَّ أن أمر بهذا الجناح سريعاً . وانطلقت إلى خارج الغرفة لتتدارك ما فات وقال الفتى وهو يودعها :

لا حاجة بي اليوم إلى ميزان الحرارة ولا إلى كل أطباء العالم فإني صحيح كما لم أكن صحيحاً يوماً ما . وتضاحكا ، وقفز الفتى من فراشه كأنما نشط من عقال . وبدت الدنيا في عينيه أجمل ما تكون .

الشمس ضاحكة مشرقة ، والهواء رقيق نديّ ، والطير يغنّي للزهر ، والأغصان تميل مع النسيم كل مميل ، والجداول تصفق طروبة ، والخضرة تسري في الأغصان ، والحياة كلها نغم جميل ساحر يهتف بالحب والهناء .

ومضت أيام أسامة وكيتي كأسعد ما تمضي الأيام بين فتى وفتاة يكتمان الهوى وتبديه أعينهما . كان يلقاها في بكرة الصباح في حديقة المستشفى تحت تمثال بوذا حيث رآها أول يوم ، ويلقاها في حجرته مرات ومرات ، وربما لقيها مساءً في الحديقة أيضاً إن كانت فارغة من عمل ، وكان أصعب الأيام عليه يوم إجازتها وكانت تقضي أيام الآحاد خارج المستشفى فكان بدوره يطلب الخروج في ذلك اليوم والبعد عن المستشفى للفسحة في المدينة .

وكان الهوى يلعب دوره بينهما في رفق وهدوء ، وكان هو قد أخذ نفسه بالحزم فلم تظهر منه أي بادرة من بوادر النزق السابقة ، وقال لنفسه إن نجاحاً كبيراً ان

استطعت أن تبلغ منها حتى اليوم هذا المبلغ ، وأن تستبدل القطيعة بالـوصل ، والجفوة بالرضا ، والعداوة بالصداقة والعطف . وإن الحب سيأتي يوماً ما ، بل هو واقع فعلاً وإن كان حظك منه أكبر وأقوى وأعمق ، وإن كنت تحمل منه ما لا تطيق ، ولكنها هي أيضاً تتطور عاطفتها إلى الحب ، فلتصبر لتبلغ ما تريد .

وكان الفتى يحرص على أن يحبب إليها نفســه وأن يخلق من الموضـوعات والحوادث ما يطيل به أمد بقائهما معاً ، وكان يريد أن يشعرها بأن ما يحسه ليس مجرد هوى طائش وإنما هو حب مكين ، كما حاول أن يصلح من نفسه ليظهر في عينيها بمظهر الرجل الجدير بالاحترام .

وكانت هي ـ كما سبق أن علمنا ـ فتاة غير عادية ، فقد نشأت وولدت في طبقة المنبوذين من أسرة فقيرة متربة ومات أبوها وهي طفلة تحبو فكفلتها أمها وعنيت بأمرها ، ونشأت بين قومها فقيرة منبوذة . ثم ان أسباب أسرتها اتصلت بأسباب بعثة تبشيرية مسيحية وفدت إلى المنطقة التي تعيش فيها ، واستطاعت البعثة بشتى وسائل الإغراء أن تدخل كثيراً من الفقراء في الدين المسيحي . وكانت والدة الفتاة إحدى المسيحيات الجديدات ، ولتنصّرها قصة لا بد وأن نسردها باختصار ، فقد مرضت الفتاة حتى أشرفت على الموت وذهبت بها أمها إلى مستشفى البعثة المسيحية تتطلب لها العلاج فرحب أطباء البعثة بها ، وبذلوا لها من العناية والراحة ووسائل الإغراء ما أعاد إلى الفتاة صحتها وحفظ عليها شبابها ، وتأثرت الأم لما رأت أي تأثر ، وكانت الفتاة وأمها قد التحقتا بخدمة المستشفى بمرتب حسن وما هي إلا أيام حتى توصلت البعثة إلى أغراضها باعلان أنه لا يمكنها قبول موظف في المستشفى إلا إذا انخرط في سلك الديانة المسيحية . وكان هذا الدين الجديد قد صادف من نفس الفتاة هوى بعد أن أدامت النظر في الإنجيل واستمعت إلى القداس واشتركت في الترانيم الكنيسية مرات ومرات . أما الأم فلم يكن دافعها إلى الدخول في الدين الجديد إلا الاحتفاظ بما تفيده من معاش حسن وفوائد محسوسة ، وهكذا أصبحت كيتي مسيحية بعد أن كانت وثنية ، واستمعت إلى محاضرات كثيرة في التمريض كما مرنت عليه ، وأُتيح لها في السنوات الأولى أن تدرس الإنكليزية دراسة وافية تتيح لها القراءة والاطلاع فتفتح ذهنها وأصبحت فتاة ذات طماح . والتحقت بمدرسة ليلية تابعة للإرسالية المسيحية لدراسة التوليد ، وكان من آمالها أن تصبح يوماً طبيبة

لو أمكن ذلك أن يكون ، ولكن الحياة لا تسير دائماً كما يشتهي الناس أو يقدّرون ، وإنما تسيرهم وفق ما تشتهي الأقدار ، فقد مرضت والدة الفتاة كيتي مرضاً خطيراً وأشار عليها الأطباء بالرحلة إلى جوكولا للاستفادة من الجو الحسن في هذه القرية الساحرة ، ووفدت الفتاة وأمها إلى هذه القرية واستأجرتا حجرات في بيت صغير وتقاعدت الأم للاستشفاء والتحقت كيتي ـ بتوصية من مدير البعثة المسيحية ـ بالعمل في المستشفى الذي نزل فيه الفتى بوظيفة ممرضة ممتازة ، وأُعفيت بصورة خاصة من خدمة الليل للعناية بأمها المريضة والسهر على راحتها ، وقد أفادت الأم عافية من هذا الجو الساحر ، واضطرت الفتاة إلى أن تقطع دراستها الليلية وأن تقنع بما قسم لها على مضض ، ولكنها لم تقنع بذلك تماماً فقد كانت تتردد باستمرار على مكتبة القرية وخصوصاً في أيام الآحاد لتقرأ من كتب الطب والصيدلة ما تستطيع به أن تنمي معارفها الابتدائية في هذا الفن ، ولاحظ أمين المكتبة نشاط الفتاة وأدبها فكان يسمح لها باستعارة ما تحتاج إليه لمواصلة القراءة والدرس .

وكانت كيتي هي كل أمل والدتها ، وكانت كما رأينا فتاة بارة عطوفاً ، وكانت الأم تصحبها في كل صباح من دارهما إلى المستشفى وتعود لاستقبالها في المساء لتعودا معاً ، وكانت حياتهما بسيطة مختصرة ، فكيتي تضع في يد أمها ما تأخذه من روبيات قليلة من إدارة المستشفى لتدبر الأم بها أمورهما . وكانت الفتاة تتناول وجبة غدائها في المستشفى بحكم عملها ، فكان ما يرد لهما يكفيهما في شيء من الضيق ، إلا أنه يمكن القول إنهما كانتا سعيدتين بحياتهما البسيطة ، بما يتخللها من حب وانعطاف .

وكانت الفتاة ـ وقد أدبها الفقر ، وثقفها الدرس ـ تعرف أنها من طبقة منبوذة مظلومة ، وقد حمدت للظروف أن أتاحت لها حظاً من العلم ففتحت عينيها على ما يقاسيه أبناء طبقتها من إخوانهم في الجنس والوطن من ظلم وضيم ، ولم يكن في طوقها أن تبدل شيئاً من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولكنها كانت في نفسها ثائرة مترفعة فآثرت العزلة لئلا تصطدم بإهانة أو تحقير . وقد أفادها هذا حصانة ووقاراً غريبين في مثل سنها وفتوتها وجمالها ، واستطاعت أن تحتفظ بكرامة نفسها وعزتها ، ولم يكن لها من أمل في الزواج فهي وقد أُوتيت حظاً من العلم لا تقبل أن تتزوج من جاهل ، أو تتزوج من رجل لا يحترمها أو يقدّرها ، وهي من طبقة مقضيّ عليها بالاحتقار في عرف العادات الظالمة والجهل الفاضح . لهذا جعلت من همها أن

تنال من العلم أقصى نصيب، ولكن هذا كان بلا شك سيذوى شبابها يوماً ما، وكان هناك من يحومون حولها، ولكنها لم تكن تميل إلى أحد منهم أو تلتفت إليه فكلهم في نظرها أناني، أو جاهل، أو عربيد.

واتصلت أسبابها بأسباب فتانا ، كما عرف القارىء ، وكان احتقارها له شديداً فقد أهان عزتها ، وتجرأ عليها بما لم يتجرأ به امرؤ من قبل ، وكانت تظن أن الفتى وهو الماجن العربيد سيطيل مطاردتها والاثقال عليها ، فإذا بها تلحظ آثار الندم ظاهرة عليه ، وكان بعد ذلك ما كان من أمر الرسالة التي قدمها لها فسحقتها بقدمها ، ثم خشيت أن تتركها في موضعها فيقرأها قارىء فيتقوّل بها الأقاويل فانثنت بعد أن ذهب الفتى والتقطتها ، ولكن فضول الأنثى دفعها لقراءتها فأسفت على ما فرط منها تجاهه ، فقد كان آخر ما يخطر ببالها أن يعتذر ، وكانت تظن أنه يطارحها الهوى أو يغريها فإذا بها تجد اعتذاراً مؤدباً . ومرّت الأيام وآثار الشحوب والهزال والسهوم تزداد على وجه الفتى ، وفي نفس الوقت تزداد هي ندماً وأسفاً ، وكف الفتى عن رؤيتها أو تفاداها كما علمنا من قبل ، ولم تجد هي من العقل أن تبدأه بشيء بعد ما كان منه وكان منها ، ولكنها خشيت - وهي الفتاة الرقيقة المتعلمة - أن تزيد العلة بالفتى فيقضى عليه ، وتطور أسفها إلى إشفاق أو خشية أو عطف ، حتى كان اليوم الذي رأت فيه رفيق الفتى يحضر إلى المستشفى ويغادره بصحبة الفتى إلى غير رجعة كما صور لها خيالها وإشفاقها ، هنالك ذهب كل ما كان في نفسها من أسباب التردد ورأت أن من واجبها أن تعتذر إليه فتركت له الرسالة التي عرفناها حينما ذهب إلى مقابلة صاحبه في غرفة المدير .

وخالج الفتاة شيء من الأسف على فراق الفتى العربي الغريب المريض ، وصارت ذكراه تراودها كلما مرت بالغرفة التي كان يشغلها ، أو كلما مرت بالمواضع التي لقيته بها ، وقالت لنفسها يوم أن رحل وكانت تنظر إليه من حيث لا يراها ، وآثار الشحوب بادية على محياه :

ترى ما الذي كان يحصل لو أنني خففت من غلوائي تجاه هذا الغريب المريض ؟ ألم أكن أفدته عافية وصحة وهو لم يترك بلده البعيد إلا لطلب الصحة والعافية . لقد أساء إليّ حقاً ولكنه قد كفر عن إساءته أعظم تكفير وقد رأيت ذلك وشهدته بما لم يدع مجالاً للشك في نفسي فماذا بعد لو أني قابلته في رقة ، وخاطبته

في أدب ، وقبلت اعتذاره وأوقفته عند حد لا يتعداه ؟ ولكن ما الفائدة الآن وقد رحل . . . رحل إلى غير عودة ، وهل يا ترى قرأ الرسالة أم سقطت دون أن يشعر بها ؟ وماذا سيكون شعوره بعد أن يقرأها ، أتراه يعفو عن قسوتي بعد ذاك ؟ وأصبحت أمثال هذه الهواجس شاغلاً لها ، ولكنها ما كانت لتسمح لها أن تتجاوز خيالها ، حتى كان اليوم الذي عاد فيه الفتى ورفيقه فإذا بالعواطف المكبوتة تنفجر في نفسها بعد أن رأت من آثار ارتباك الفتى وانفعاله أنه ينطوي لها على حب عظيم مقيم .

- ١٦ -

الليلة ساجية رقيقة النسمات ، والبدر يرسل أشعته الرطيبة على الحقول المنبسطة حول القرية ، والجداول متناثرة هنا وهناك ، فيخيل للرائي أنه في عالم ساحر غريب ، ورائحة ثمر المانجو زكية عطرة ، وأشجار النارجيل يميل بها النسيم كل مميل ، والأزهار تفتقت عن أكمامها والطيور توصوص في أوكارها ، وكيتي وأسامة في الشرفة الرحبة ، يمتّعان العين والنفس بهذه الدنيا الساحرة الفياضة بالفتون .

وملأ أسامة رئتيه بالهواء النقي الرقيق ، وتطلع إلى البدر وهو يحبو في كبد السماء ، ومن حوله الزهرة تتلألأ كالماسة في عنق الحسناء . ثم أرسل النظر إلى الحقول السندسية المنبسطة فوق الأديم وانثنى جالساً فوق كرسيه الطويل وقال لكيتي وهو ينظر إليها :

تأملي أيتها العزيزة هذه الدنيا الساحرة وانظري إلى بديع صنع الله خالق هذا الكون الجميل .

قالت الفتاة : حقاً إنها ليلة ساحرة ، ولكن ليالي الربيع ساحرات على الدوام .

قال الفتى : يخيل إليَّ يا كيتي حينما أنظر إلى الطبيعة محاولا اكتناه أسرارها ، أن الله جلت قدرته جعل الحب والتعاون سر الحياة في هذا الوجود . انظري إلى هذا البدر الساجي الساحر الذي يرسل نوره الرقيق كأنسام الفجر العذبة ، وانظري إلى هذه النجمة المتلألئة التي يدعونها الزهرة يخيل إليَّ أنها تنظر إلى البدر وترعاه وأنه

كلما ازداد نوراً ازدادت هي سروراً ، وإنه ليخيل إليّ أن بينهما من الحب والتعاون ما يكفل لهما هذا الانسجام البديع ، بل هذا البدر الذي يقولون إنه عكس لإشعاعات الشمس والذي يسير معها في نظام فلكي بديع ترى لو لم يكن بينه وبين الشمس هذا التعاون أي ليـل مظـلم رهيب كان يسيطر على الدنيا ، فهو يبدو حينما تغيب الشمس ، وتشرق هي حينما تغيبه السماوات . وهذه الحقول الجميلة بما حوت من أزهار وثمر ، ومن خضرة مونقة وورود متفتحة ، إنما تقوم على التعاون والحب ، فالسماء تروي الأرض بالماء لتكون صالحة للزرع ، والماء يسري في الغصون فتورق وتزهر وتثمر ، والطبيعة كلها تتعاون لإخراج الزهر والثمر ، الأرض بما حوته من بذور وماء ، والشمس بحرارتها ودفئها ، والهواء بسمائمه وشمأله ، والسماء بغمامها ومائها ، والإنسان بجهده وعقله يرتب هذه الأمور وينظمها ليضمن لها الانسجام والنجاح .

بل هذا الإنسان الذي هو أرقى المخلوقات ، ترى لو لم يكن التعاون والحب مركباً في طباعه أيَّ مخلوق كان أو يكون ، حتى العجماوات إنما تعيش في جو من الألفة والتعاون والحب لتنتج وتنفع وتحيا .

قالت الفتاة : فإني أراك اليوم تمزح الشعر بالفلسفة فأيّ وحي هذا الذي هبط عليك ؟ لقد عهدتك يا صديقي طروباً متفتح النفس للحياة ، أما الشعر والفلسفة فما هما من بضاعتك . . . !

قال : حقاً ما تقولين ، ولكني الآن أشعر أني أصبحت إنساناً آخر ، لقد ذهب الشاب الطروب الذي تعرفين ، وتبدل فأصبح رجلاً كثير التفكير والبحث ، وأصبح الخيال مادة من مواد التفكير عندي حينما تعوزني الحقائق ، وهي تعوزني دائماً ، فإذا كنت بهذا قد أصبحت عندك من فصيلة الشعراء فأنا منهم على التحقيق .

قالت ـ وألقت بوجهها إلى البدر فتسلط إشعاعه عليه ـ : يخيل إليَّ أن هذا البدر هو سر القصة كلها ، فلو كانت الليلة داجية مظلمة لما بدت لك هذه الطبيعة ساحرة رقيقة ، ولكن ضياء البدر الساحر الذي يشمل الكون كله في حلة رقيقة ، ساجية ، أوحى إليك أن هذه الحياة رقيقة ساحرة ! .

قال : أما هذا فصحيح ، إني أحب القمر بضيائه وسحره ، وأحب الطبيعة رقيقة ساجية ، والهواء عذباً سجسجاً ، وأحب أنسام الصباح وضياءه ، وأحب الغمام الرقيق .

قالت : أما أنا فعلى العكس إني أحب الليالي داجية لا يشرق فوق صفحاتها قمر ، وأحب الهواء عاصفاً لا يبقي ولا يذر ، والسماء تتفجر بالصواعق والبرق ، وتملأ الأرض بالثلوج والماء . وأحب البحر مزبداً هائجاً رهيباً . إن هذه المناظر تمثل لي قوة الطبيعة وجبروت الخالق ، وأنا دائماً أحب القوة والجبروت .

قال الفتى ـ وقد أخذته هزة وأمسك بيدها فنسيتها في يديه ـ : أتعرفين أنك تخيفينني يا كيتي بهذا الذي تقولين ؟ فرفعت وجهها إليه ومرّت بيدها على شعره ، وقالت : أخائف حقاً يا فتاي الصغير ؟ وأدنى يدها في رفق من فمه فقبلها قبلة حب وإجلال ، ورفع عينيه إلى عينيها ، وبدت هي كأنما تنظر إلى بعيد وهو ينظر في عينيها . واختفى البدر في قلب الغمام ، ورجف قلبان ، والتفت ذراعان ، والتقت شفتاه بشفتيها في قبلة عميقة كالزمان . . . ومكثا لحظة عيناها في عينيه وذراعاه تحيطان بخصرها الواهن ويداه تمسحان شعرها الأثيث الجعد وفي قلبيهما زلزلة رقيقة وأنفاسهما لاهثة ، لحظة لا تحد بالدقائق والساعات في عمر الزمان ، ولكنها أعظم ساعة في تاريخ القلب الإنساني كله على مدى الأزمان .

وأطل البدر من أحضان الغمام فنحّت يديه في رفق وابتعدت عنه قليلاًوبدت على وجهها آيات من اللوم والتفكير . وتنهدت من أعماق قلبها في سكون . ثم قالت : كيف وقع هذا ؟

قال الفتى ـ وفي صوته نبرة راجفة ـ : إنه الحب يا عزيزتي . إنه قدرنا المكتوب . وهل ينجو إنسان من قدره ؟ إن الله خلقنا هكذا لنحب ونتعاون ونحيا .

قالت : فإني ما كنت أود أن هذا يكون .

قال الفتى ـ وقد بدا على وجهه شيء من الحزن والسهوم ما لبث أن انقشع ـ :

إن المسألة ليست إرادتي أو إرادتك إنه قانون الحياة ، نخضع له راضين أو كارهين ، يخيل إليّ أننا خلقنا أنت وأنا لنحيا معاً ، أشياء كثيرة هي التي تجمع بيننا

يا عزيزتي . كلانا شاب في سن الحياة والحب ، وكلانا غريب ، أنا غريب الديار والأهل ، وأنت غريبة بما حباك الله به من أخلاق حصينة متينة ، وهذا التآلف تصوري شاباً غريباً يقطع عشرات الألوف من الأميال ليلقى قدره هنا في بلاد لا يعرف لغتها ولا أهلها ولا دينها ، وفتاة تقطع مثل هذه الرحلة في عالم القلوب لتلتقي بفتى من غير جنسها ودينها وأهلها ، إنه حكم القدر الذي لا مفر منه فلم لا نفرح به ؟ ولم وقد ألقت علينا الطبيعة أولى آياتها وأحكامها لا نمتثل راضين ؟ إني أقدم لك حياتي فهل تقبلينني زوجاً ؟

قالت الفتاة : أما هذا فإني أرجو أن تؤجل الحديث عنه الآن .

قال : أما أنا فأرى أن هذا هو وقت الحديث فيه ، ومع ذلك فإني أرجو أن تفكري فيه كثيراً وكثيراً وأنا منذرك منذ الآن بأني سأطيل فيه الحديث حتى أظفر بالجواب الذي أريد . .

قالت ـ وكأنما أرادت أن تغير وجهة الحديث ـ :

أتعرف يا عزيزي أن غداً يوم عيد النيروز ؟

قال الفتى ـ وقد تذكر أمراً ـ : وغداً يا حبيبتي يوم عيد الأضحى وهو أكبر الأعياد عندنا معشر المسلمين وفي بلادي على التخصيص .

قالت : إذن فهذه ليلة عيدين ، قال : كلا بل هي ليلة ثلاثة أعياد . . . وابتسما ووقف الفتى مودعاً وأخذ يد كيتي في يديه فضغطها محيياً وانصرف وفي قلبه ونفسه أحاديث وفتون .

- ١٧ -

لم يسعد الفتى من قبل كما سعد بهذه الليلة الساحرة التي أتينا على وصف ما دار فيها في الفصل السابق ، وكانت كيتي قد دعته إلى دارها لتعرّفه إلى أمها بعد أن توثقت بينهما الصداقة واطمأنت إليه ، وذهب عنها ما تخشاه منه . وبعد تناول الشاي أوت والدة كيتي إلى سريرها وخرجا ـ أسامة وكيتي ـ إلى الشرفة ليختم الحب على قلبيهما بخاتمه السحري الوثيق . ومضت أيام الفتى سعيدة راقصة وأفاده هذا صحة وعافية فأشرق وجهه والتفت عضلاته وبدا سعيداً قوياً حتى أذن له الطبيب بمغادرة المستشفى والسكنى خارجه .

وبحث الفتى فوجد نزلاً قريباً من دار الفتاة ، وهكذا أصبح يقضي أمسياته وأيام الآحاد معها على الدوام . وازدادت علاقة الفتى بكيتي ووالدتها على الأيام توثقاً وقوة . وكان الفتى لا يترك فرصة تمر دون أن يطرق معها حديث الزواج ، وكانت هي تتهرب من هذا الحديث أو توقفه ما استطاعت ، وكان هو من جانبه لا يسأم العودة إليه بشتى الطرق والأساليب .

وفي ذات يوم خرجا ـ أسامة وكيتي ـ للتريّض في الحقول خارج المدينة ، وكان عصر يوم أحد ، وجلسا إلى غدير رائق نمير ، يجري تحت أقدامهما وقد قامت من حوله أشجار النارجيل تظللهما بظلها الوارف ، ورائحة الورود تعطر الجو بشذى رقيق . أمسك أسامة بيد كيتي ونظر إلى عينيها نظرة فيها كثير من الرقة والخضوع ثم قال : أما آن لك يا عزيزتي أن تزيلي هذه الغمة التي تجثم على صدري ؟

فنظرت إليه وقد فتحت عينيها جيداً : وأيّ غمة هذه التي تجثم على صدرك مني ، إن كان في صحبتي لك ما يشق عليك ؟

وكان قد أدرك أسامة أنها تغالطه فوضع يده على فمها وقال : أرجوك . أرجوك يا كيتي ألاّ تغالطي وكفاني إيلاماً . . .

قالت : وهل في كلامي ما يؤلمك ؟ إني إذاً معتذرة لك !

قال : وهذه أيضاً مغالطة ، لنتكلم يا عزيزتي في وضوح ، إني أعرفك فتاة عاقلة صريحة ، بل أنت أعقل من عرفت من الفتيات حتى الآن .

قالت : أو قد عرفت الكثيرات ؟

قال : دعيني بالله من هذا الآن ولنتحدث عنه في فرصة أخرى ، فإني أريد أن يكون بحثنا اليوم حراً صريحاً ، فاسمعي ما أقول ولا تقاطعيني .

قالت : فإني لك ما تشاء أيها الدكتاتور الصغير .

قال : إنك فتاة عاقلة صريحة ، وأنت تعرفين أن العلاقة بين فتى مثلي وفتاة مثلك لا يمكن أن تنتهي إلى نتيجتها الطبيعية إلا بالزواج ، وأنت تعرفين أيضاً ما أكنه لك من حب قوي عميق وقد خبرت من أخلاقي ما آمل أن تكون نتيجته في مصلحتي ، وأنا لا أعرف أني أستطيع أن أحيا دونك ، إنك لي كالماء يروى به

الظمآن ، وكالهواء يتنفس في جوه الإنسان . بل أنت لي كالنور في العينين وقد أبدلني الله بك نورا بعد ظلمة ، وفرحة بعد ترحة ، قولي بالله هل رأيت إنساناً يترك النور ويبقى في الظلام ؟

قالت : أما وقد أردت الحديث جاداً فإني أقارضك جداً بجد وصراحةً بصراحة .

إني أعرف ما تكنه لي ، وأنت تعرف ما أكنه لك فلا حاجة إلى الإفاضة فيه ولكن ما أعجب له منك أنك لا تدرك ما بيننا من فروق قد تحول بينك وبين الزواج مني كما تريد .

قال الفتى ـ وقد اعتدل في مجلسه ـ : وأي هذه الفروق تعنين يا عزيزتي ؟

قالت : تصور أولاً انني من غير دينك فأنت مسلم وأنا مسيحية ، ثم إني من طبقة في بلادي تدعى المنبوذين . وهنا ظهر الألم الشديد على وجه الفتاة فتأثر الفتى ، ولكنه لم يشأ أن يقاطعها فقد كان يودّ أن يصل بهذا الحديث إلى أقصى نتائجه ، قال : نعم استمري يا عزيزتي . قالت وقد ظهر على وجهها التردد فأخذ يشجعها بعينيه : وهناك ثالثة الأثافي فأنا فتاة فقيرة ، والفتاة الفقيرة عندنا لا تتزوج ، فكيف تريد أيها العزيز أن تقدم على الزواج من فتاة فقيرة منبوذة تخالفك في الدين والجنس والوطن والعادات ؟!

قال الفتى ـ وقد أشرق وجهه بابتسامة كبيرة ـ : فهذه هي المشاكل الكبرى في نظرك يا فتاتي المسكينة ، اعلمي أولاً أن ديني من السماحة بحيث لا يحرم علينا الزواج من المسيحيات ، بل هو يحل لنا الزواج من كل كتاب ، والمسيحية دين سماوي يعترف به الاسلام . كما يعترف باليهودية ، وبكل الأنبياء والرسل . قالت الفتاة : أحقاً ما تقول ؟ قال : بلى إنه لحق ، أما انك فتاة منبوذة فإنني شخصياً كإنسان لا أعترف بهذه الفروق بين الطبقات ولا أقر هذا التمييز بين بني الإنسان ، ان الناس يا عزيزتي سواء لا يتفاضلون إلا بأخلاقهم وأعمالهم ، وأنت بأخلاقك القوية خير عندي من الملكات على عروشهن .

قالت الفتاة : فما يقول دينكم في طبقة المنبوذين ؟

قال أسامة : اعلمي يا عزيزتي أن ديننا ليس فيه منبوذون ولا متميزون ، إن

رسولنا صلوات الله وسلامه عليه يقول : لا فضل لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب . لقد سوى الإسلام بين الناس ، وأزال الطبقات بتعاليمه السمحة الكريمة ، فأنا إن استرشدت بديني في أمرك لوجدت منه العضد والسند .

قالت الفتاة : فإني ما سمعت كاليوم حديثاً عجبا .

قال الفتى ـ وقد سرّ بما رأى من إصغائها إليه واستجابتها له ـ :

أما الفقر فإنني أولا لست بالغني ، بل لو كنت غنيا وكان لي ملء الأرض ذهباً لما عدلت بك امرأة في الوجود . ليس الزواج يا عزيزتي تجارة أوراق مالية حتى ندخل فيه حساب الفقر والغنى ، والثروة والعدم . إن الزواج شركة حياة ، شركة معنوية يتشارك فيها قلبان وتتحد فيها روحان ، فما دخل العقار والدينار ، والزرع والضرع ؟ قالت الفتاة : فإني أريد أن أعرف أيضاً رأي دينكم في الفقر ؟

قال الفتى ـ وقد زاده استفسارها واهتمامها تدفقاً ـ :

أما ديننا فهو دين الفقراء والمساكين ، وما أنصفت ديانة سماوية أو شريعة أرضية الفقراء كما أنصفتهم ديانتنا .

كان نبينا ـ أفضل صلوات الله وسلامه عليه ـ فقيراً يرعى الغنم ويرقع نعله ويحلب شاته ويسير في خدمة أهله ، وكان كثير الحب للفقراء والبر بهم ، وقد دانت له الممالك وفتحت له الأرض كنوزها ، وخفضت له الرقاب ، ولكنه آثر الفقر زهداً في المال ، وبرّاً بالفقراء . وكان يعصب على بطنه حجراً من شدة الجوع . وكان يقول : حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . وكان للفقراء في مجلسه وداره مقام معلوم يشركهم في طعامه وشرابه ويوصي بهم أصحابه ، بل إن ديننا هو الدين الوحيد الذي جعل للفقراء والمساكين نصيباً معلوماً في كل عام من أموال الأغنياء والقادرين . قالت : وكيف ذلك ؟

قال : إن الإسلام يوجب على كل مسلم يملك مقداراً معلوماً من الذهب والفضة ـ وشرح لها ما يساويه النصاب الشرعي للزكاة بعملة بلادها ـ أن يخرج منه للفقراء والمساكين بمقدار اثنين ونصف في المائة متى حال عليه الحول ، وكذلك القول في التجارة وعروضها ، وهناك نظام يختص بزكاة الزرع والحيوان ، بل هناك شيء

آخر اسمه زكاة البدن أو زكاة الفطر يتساوى فيه الغني والفقير ، والصغير والكبير ، والخادم والسيد ، والشيخ والطفل الذي لم يتجاوز من العمر يوماً أو بعض يوم .

قالت : وكيف ذلك ؟

قال : إن الله فرض على المسلمين صيام شهر واحد اسمه شهر رمضان يصوم فيه المسلمون المكلفون من الذكور والنساء ، من قبل مطلع الفجر إلى غروب الشمس فإذا انتهى هذا الشهر وجب على كل امرىء أن يخرج عن نفسه وعمن يعولهم من النساء والأطفال والخدم زكاة اسمها زكاة الفطر وتخرج في يوم اسمه يوم عيد الفطر وهذه الزكاة تكون من غالب قوت أهل البلد ، ومقدارها ما يقرب من أقتين تقريباً ونحن في بلادنا نخرجها من الحنطة لأنها الطعام الرئيسي في بلادنا .

قالت : وماذا يفعل الفقراء الذين لا يملكون شيئاً ؟ قال : إن الفقراء في بلادنا لا يفرحون بشهر من شهور العام كما يفرحون بهذا الشهر ، فقد اصطلح الناس فيما بينهم أن يخرجوا زكاة أموالهم في شهر رمضان والزكاة إنما هي حق من حقوق الفقراء ، وقد اعتاد الناس أن يوسعوا على أنفسهم وأهليهم وخدمهم في هذا الشهر فيكسون بالكسى الجديدة ليستقبلوا عيد الفطر وهو العيد الثاني في بلادنا بالثياب الجديدة والفرحة بالإفطار بعد الصيام . ثم إن الفقير الذي لا يملك شيئاً يأخذ من غيره زكاة فطره ويخرجها عن نفسه وبهذا يضمن أداء ما فرضه عليه الدين من زكاة الفطر ، ولا يوجد فقير في بلادنا لا يملك زكاة فطر في هذا الشهر فيما أعرف حتى اليوم .

قالت : فإن دينكم هذا لسمح كريم .

قال : إن الشريعة الإسلامية موصوفة بأنها الشريعة السمحة .

قالت : ولكني لا أعرف بل أعتقد أن الكثيرين في بلادنا من غير المسلمين لا يعرفون عنها شيئاً . لماذا لا ترسلون إلى العالم مبشرين كهؤلاء الآباء المسيحيين الذين يفدون إلى أنحاء العالم ليبشروا بديانتهم وقد علمت أن بلادكم هي للاسلام كالفاتيكان أو روما بالنسبة للمسيحية ؟

قال : نعم إن بلادنا هي كعبة الإسلام منها خرج النور وإليها يعود ، وإليها وحدها يحج المسلمون من كل حدب وصوب ، أما تقصيرنا في الدعوة للإسلام فهي

حقيقة ملموسة لا شك فيها . ولكننا نعتذر عن ذلك بحالة بلادنا وما هي عليه من فقر ومتربة ، ومن نقص في التعليم ووسائل الحياة ، وأنت تعلمين يا عزيزتي أن الفقير الجاهل لا يستطيع أن يرشد غيره ويعلمه . قالت : فإن ما علمته اليوم من تعاليم ديانتكم كفيل بأن يأخذ بيدكم إلى الحياة الصحيحة التي تقوم على المحبة والعلم والسلام .

قال : إن الحق ما تقولين ولكن الظروف التي حاقت بالمسلمين هي التي أخرتهم وليس الإسلام هو السبب ، بل إننا لو تمسكنا بتعاليم ديننا كل التمسك لدانت لنا الدنيا وكنا السابقين كما كان أسلافنا في العصور الماضية أيام مجد الإسلام وعزه .

قالت : فإنكم لا تتمسكون بتعاليم ديانتكم إذاً ؟

قال : ليس هذا تماماً ، إن الناس هم الناس في كل زمان ومكان والشرائع قيود كما تعلمين ، والنفس الإنسانية تحاول أن تكسر القيود وإن كانت في مصلحتها ، ولعل بلادنا هي خير بلاد المسلمين من ناحية التمسك بشعائر الدين ومظاهره ، فالسارق تقطع يده ، والسكير يجلد ، والأخلاق ما تزال بخير ، والأمانة والثقة متوفرتان بين الناس في أغلب الأحيان .

قالت : أليس في بلادكم مراقص أو ملاه كما هي الحال عندنا ؟

فضحك أسامة وقال : إن بلادنا لا يمكن أن تظهر فيها المرأة فكيف يكون فيها مراقص أو ملاه ؟! إن المرأة عندنا محجبة لا تظهر منها إصبع واحدة ، وهي إذ تسير تضع على وجهها حجاباً كثيفاً لا يبين ما خلفه ، فلا يكاد يبين لها طريقها إلا بشيء من التكلف غير يسير .

قالت : ولكن قل لي أراضيات نساؤكم عن هذا الحجاب وهل يأمركم به دينكم ؟

قال : أما انهن راضيات فكل الرضا ، إن المرأة عندنا مدللة كأنها ملكة ومملكتها دارها ، ليست مسؤولة إلا عن إدارة منزلها وتربية أطفالها وتهيئة وسائل الراحة للرجال ، أما الرجال فهم الذين يسعون للرزق ويوفرون للمرأة كل ما تشتهي من متاع بحسب طاقة كل رجل وقدرته . والمرأة معترفة بقوة الرجل

وسلطانه ، ملتجئة إلى حمايته ، معتزة بهذه الحماية ، والعلاقة تقوم بين الرجل والمرأة على الحب والحنان من جانب المرأة ، وعلى الحدب والرعاية من جانب الرجل ، أما ديننا فقد أوصى بالمرأة خيراً ، وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو قدوة المسلمين وإمامهم ـ من أكرم الناس معاملة للنساء وبراً بهن ، وكان يوصي أصحابه بزوجاتهم خيراً فيقول ـ رفقاً بالقوارير ـ وكان يقول ﷺ : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهله . وقد أوصى الله سبحانه وتعالى بهن خيراً فقال : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ . وأوصى بألّا يأخذ الرجل من امرأته شيئاً إن طلقها فقال : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج واتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً؟﴾ . وديننا يضع القوانين الحكيمة للرجل والمرأة فيجعل الرجل قوّاماً على المرأة مفضلاً عليها، وكلفه بالإنفاق عليها . وكلفها باطاعته ليجنبها السعي للرزق والكدح للحياة ، أما مسألة السفور والحجاب في الإسلام فإني أريد أن تعلمي أيتها العزيزة أنني لست عالماً دينياً ، وهذه مسألة اختلف عليه العلماء ، ولكن لي فيها رأياً لا أعرف أصوب منه ، وهو أن المرأة إن خشيت الفتنة فعليها أن تحتجب ، وإن لم تخشها وكانت مضطرة وكانت إلى السفور فلا بأس بذلك ، ولعل هذا يفسر كثيراً من اختلاف أعلام المسلمين على هذه المسألة الشائكة فإن في أجزاء من بلادنا وفي البادية على الخصوص حيث لا يستغنى الرجل عن المرأة ومعاونتها في الزراعة والتجارة تخرج المرأة سافرة وتقضي حوائجها بنفسها وتشارك الرجل أعمال تجارته وزراعته ولا يجد الناس أي غضاضة في هذا بل يرونه طبيعياً ، أما في المدن والحواضر فإن المرأة محجبة حجاباً ثقيلاً كما وصفت لك من قبل ، ولعل للعادات هنا تأثيراً في الحكم أكبر من تأثير الدين . وإلا فلماذا يباح للبادية ما لا يباح للحاضرة ، وللبدوية ما لا يباح للحضرية ؟!

قالت : إنك تزيدني بهذا عجباً يحملني على الاستزادة من الحديث عن بلادك ودينك وقومك .

قال : فإني تحت تصرفك في هذا وغيره ، ولكن سؤالي الحائر ما زال ينتظر الجواب يا عزيزتي . وأمسك بيدها ثم قال : هل تقبلينني زوجاً ؟

قالت : فإني أرجو أن تترك لي فرصة للتفكير والتدبر .

قال : إلى متى فإني فنيت انتظاراً .

قالت : فإني أعدك بأن يكون جوابي قريباً ، ولعلك تعرف أن لوالدتي في هذا الأمر شأناً غير شأني ولكن قل لي بالله هل تفرض عليَّ هذا الحجاب الثقيل الذي تتحدث عنه إذا ما صرت لك زوجاً ؟ قال : أما إن كنا هنا فلا ، وأما إن ذهبنا إلى بلادي فنعم .

قالت : ولكني لا أطيق هذا الحجاب الذي ما وضعته يوماً على وجهي .

قال : لست أول من يحاول الاعتياد على شيء لم يألفه ، فإن كثيرات من النساء يفدن إلى بلادنا . مع أزواجهن ، وكن في بلادهن كما أنت الآن ولكنهن بحكم وضع البلاد وعاداتها يتخذن الحجاب ويحرصن عليه ، حرصاً على كرامة أزواجهن ومراعاة لعادات البلاد التي ينزلنها واحتراماً لأخلاق أهلها بل إني عرفت واحدة منهن تتفانى في ذلك حتى تزيد عن نساء الحجاز أنفسهن .

قالت : فإن هذا هو ما يسميه غوستاف لوبون « حمى الجماهير » .

قال : نعم هو شيء من ذلك يا كيتي العزيزة .

وكانت الشمس قد غربت وأظلم المساء وهما في هذا الحديث فالتفتت الفتاة وقالت : لقد سحرني حديثك اليوم حتى نسيت الزمن ، هيا بنا نعد فلعل والدتي كثيرة القلق لغيابنا . قال الفتى ـ وقد نهض متأبطاً ذراعها ـ : هيا بنا . وقفلا عائدين .

- ١٨ -

يمكن القول إن هذا الحديث وما تلاه من أحاديث كان أساساً جديداً قامت عليه علاقة أسامة وكيتي فقد تكشف لها الفتى إنساناً جديداً غير الذي تعرفه من قبل ، ووافق هذا الاكتشاف هوى من نفس الفتاة الحازمة الطموح ، ومضى الربيع ، وحلّ الخريف وأيام الفتى والفتاة تسير هادئة هانئة وسفينة حبهما تجري في موج هادىء عذب النسمات ، والأحاديث بينهما تتصل وتنفصل لتلتقي عند نقطة واحدة هي محور ما يتطلبه الفتى دائماً ، وما تسكت عنه الفتاة في كثير من الأوقات .

وكانت أحاديث أسامة عن الوطن والدين أحب الأحاديث إلى نفس كيتي

المتطلعة . فقد فتحت لها هذه الأحاديث أبواب عالم جديد ما كان يخطر لها على بال . هذا الدين السمح الذي ساوى بين الملوك والسوقة ، والذي قرّب بين الغني والفقير ، وألغى الفوارق بين الطبقات ، ثم هذه البلاد العجيبة التي تتحجب فيها المرأة وراء أسوار وحجب ثقال . كل هذا أثار من عجب الفتاة وإعجابها ما جعل هذه الأحاديث وأمثالها مادة لقاء الفتى والفتاة . ومما حفّز الفتى إلى البحث عن الكتب المؤلفة عن الإسلام بالإنكليزية وأهمها كتب السيد إقبال والزعيم محمد علي ، فكان كلما عثر بكتاب منها سارع إلى شرائه واهداه إليها ، وهي بطبيعتها قارئة ممتازة فكانت تفرح بهذه الكتب كما لم تفرح بشيء من قبل خاصة وأنها لمؤلفين من جنسها ووطنها . وكانت هذه الكتب موضع دراسة الفتى والفتاة في أوقات منتظمة فهي تقرأ الفصل أو الفصول حينما تأوي إلى غرفتها وتقابل الفتى في اليوم التالي مستوضحة ما غمض عليها فهمه أو مناقشته لبعض الأمور التي تدعو إلى المناقشة . وكانا في بعض الأحيان يقرآن الفصول معاً ، وكانت مهمة الفتاة تنحصر في القراءة ، ومهمة الفتى في الشرح والتفصيل ، ووجد الفتى في مكتبة القرية التي تعرف إليها بواسطة كيتي كثيراً من كتب المراجع العربية في الدين الإسلامي فاندفع إلى القراءة فيها تلبية لرغبة الفتاة وإشباعاً لأسئلتها التي لا تنتهي . وهكذا أصبح الفتى في سبيل حبه فتى مميزاً راشداً ، وهكذا أصبحت العلاقة بين الفتاة والفتى سبيل خير وبركة لأنها إنما تقوم على الثقافة والعلم ، وما قامت علاقة أطهر ولا أنبل في الوجود من علاقة تخدم ثقافة الفكر ، وتبصرة العقل ، وتهذيب الوجدان . وقد أفادت هذه العلاقة الفكرية كلا من الفتى والفتاة فقد تمكّن هو من الإنكليزية التي أصبحا يدرسان ويتكلمان بها ، كما فتحت لهما آفاق المعرفة الواسعة فانطلقا يقرآن ويدرسان ويتذاكران ما قرآ ودرسا على الدوام ، ووحدت الثقافة المشتركة أفكارهما وقرّبت بين قلبيهما فأصبحا يشتركان في أكثر من سبب أو غاية في الحياة . ولم تكن أحاديث الحب بينهما أو مواقفه كثيرة أو متقاربة . فقد كان للفتاة من الهيبة والجد ما جعل الفتى أكثر حذراً ، وأعظم حيطة ، وكان يطرق أحاديث الزواج في فترات متباعدة كلما وجد الفرصة مهيأة ، والوقت ملائماً ، وكان ربما تطرق منها إلى حديث هواه ، وهكذا حتى بعد أن تكاشفا بالحب وتحدثا في أمر الزواج لم تتعد العلاقة بينهما حدود الصداقة البريئة والتعاون الفكري الخالص ، وكان هذا الحرمان يزيد في وقدة الحب في قلب الفتى ، ولكن عفاف الفتاة وأدبها وكثرة لقائهما يلطّف من حدة هذا الحرمان

وينزل على قلب الفتى بشيء من برد الرضا والسلام .

وكان أسامة يشعر أن كيتي بدأت تحب الديانة الإسلامية وتفهمها ، ولكنه لم يكن يطلب إليها قط أن تخلع ديانتها لتلتحق بدينه ، وإن كان يتمنى أن يتم ذلك من أعماق قلبه ، فهو يعرف سلفاً ما سيواجهه من مشاكل وانتقادات إن عاد إلى بلاده فعلموا منه أنه تزوج مسيحية ، ولكنه لم يحفل بشيء من هذا فهو لا يفكر في العودة إلى وطنه وكيف يعود إلى بلاده وهو موزّع القلب مسلوب الفؤاد ، ولكن الحوادث لا تسير دائماً وفق ما يشتهي الناس والمحبون على وجه خاص ، فما هي إلا أسابيع حتى بدأت نذر الحرب العالمية تملأأفق العالم ، وحتى أصبحت إذاعات الراديو ، وأنهار الصحف تسيل بأخبار الحرب ونذر الحرب . وبدأت رسائل الفتى تصله من أهله وكلها تحثه على العودة ، وكان لا يلقي إلى كل هذا بالاً في البداية ، ولكن رسالة برقية وردته من عمه ينبئه فيها بوفاة أبيه ويدعوه فيها إلى سرعة العودة ، كانت هي الحد الفاصل في هذا الأمر ، وفي اليوم التالي وصل رفيق الفتى من بومباي ليعود به إليها حيث يركب البحر ليعود إلى بلاده

قال الصديق بعد أن عزّى الفتى عزاء جميلا ، إن واجبك الآن أن تعود إلى وطنك ولقد لقيت الطبيب فأكد لي أنك قد شفيت تماماً ، وإني أنصح لك شخصياً بالعودة المبكرة فإن الحرب موشكة أن تقع ، وستنقطع هنا عن وطنك وأهلك ، وإن والدتك الآن أشد ما تكون حاجة إليك فرتّب أمورك لنرحل من هنا في بكرة الغد ، وما زال به حتى أقنعه بالرحيل .

هنالك لم يكن بد من أن يصل الفتى والفتاة إلى اتفاق على مسألة الزواج ، فانطلق الفتى إلى السوق فاشترى خاتماً من الذهب نقش عليه اسم الفتاة وتاريخ اليوم ، واشترى إلى جانب ذلك ثوبين من أجمل الثياب أحدهما للفتاة والآخر لوالدتها وذهب بحمله الثمين إلى الدار فوجد كيتي بالشرفة وما ان أقبل حتى نظرت إلى ما يحمله وقالت ضاحكة :

أي شيء هذا الذي تحمله معك اليوم يا صاحبي ؟ إنه ليس كتاباً على كل حال !

قال الفتى ـ وفي قلبه حرقة ، وفي نبراته ألم ـ : كلا يا عزيزتي ليس هو كتاباً ،

ولكنه هدية صغيرة تذكرين بها صديقك العربي الذي سيعود إلى بلاده بعد ساعات .

فدهشت كيتي ولم تمد يدها إلى الهدية ونظرت إلى أسامة في دهشة يشوبها الألم ، ومرت لحظات كان كلاهما فيها صامتاً . ثم أقبلت والدة كيتي تحمل إليهما ابريق الشاي وكوباته ، وكأنما أدركت أن في الجو شيئاً فالتفتت إليهما وقالت : ما لكما اليوم صامتين على غير عادة ؟

قالت كيتي : لا شيء يا أماه سوى أن أسامة يقول إنه سيرحل عنا قريباً . فانثنت الأم مستفسرة ولماذا ؟ ألم تعجبه صحبتنا ؟

قال أسامة بعد أن أطلق آهة حرّى : كلا يا سيدتي ، والله ما وددت بصحبتكما صحبة أخرى ، ولو خيّرت لاخترت أن أقيم في جواركما إلى آخر الدهر ، ولكن لي والدة تطلب رؤيتي وقد غبت عنها سنوات ثلاثا ، وأنت تعرفين شعور الأمهات فأنت أم قبل كل شيء ، وقد تلقيت اليوم برقية بوفاة أبي فأصبح من واجبي أن أعود .

قالت الأم : إني والله يا بني لآسفة لفراقك وإني لأعرف أن أسف ابنتي أكبر من أسفي فإنك قد حللت من نفسها مكاناً لم يحله أحد ، وأنت جدير بهذا ، ولكن أمك يا بني هي الآن أحوج ما تكون إليك فاذهب إليها وليباركك الله .

وخرجت الأم لبعض شأنها وبدا كأنما أفاقت كيتي من غشيتها فنظرت إلى أسامة نظرة كلها حب وجزع ثم قالت : ومتى ؟

قال : غداً عند الفجر .

قالت : هكذا سريعاً ؟!

قال : نعم . هكذا سريعاً وبكل أسف يا كيتي العزيزة ! وكان ألمه ظاهراً ، بل كان كل ما فيه ينبىء عن آلامه العظيمة التي لا حد لها ، وجهه المصفر ، ونبراته المرتجفة ، وتنهداته الحرّى .

قالت : ومتى تعود ؟

قال : هذا ما لا أعلمه يا كيتي . ذلك شيء في علم الله ، إنه اليوم غيب ،

ولكني أرجو . . . أرجو أن أعود قريباً وقريباً جداً لو كان هذا في الإمكان .

واستبشرت كيتي بهذا فقالت : أحقاً ما تقول ؟ قل لي أيحدثك قلبك بأنك عائد يوماً ما ، حتى نتلاقى مرة أخرى ؟

قال : هذا ما لا بد وأن يكون يا عزيزتي فإن في هذا حياتي ، حياتي بكل ما فيها من مسرات وأشواق ، وأمان وهناءات . ولكن ألا تودّين أن تري هديتي لك الآن . وأخرج الثوب الحريري الجميل ووضعه أمامها فتأملته في إعجاب وقالت : انه جميل ، ولكني كنت أود أن تبقى هنا ولا يكون لي هذا الثوب . قال لها : شكراً يا عزيزتي ، وكنت أتمنى أنا أيضاً أن أكون هنا وأن أحضر لك في كل يوم ثوباً كهذا أو أجمل منه ، ثم أخرج ثوب أمها وقال : هذا لوالدتك يا كيتي فالتمسيها أن تقبله تذكاراً مني .

ثم أخرج خاتم الخطبة وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها وقال : وهذا يا كيتي الحبيبة هل تقبلينه ؟ إن هذا هو العزاء الوحيد لي في هذا الفراق . فنظرت إلى الخاتم ملياً ثم أخذته في يديها فأمسك بيدها ووضع الخاتم في إصبعها فابتسمت فقبّلها شاكراً وقال : إنك لا تعرفين أي سعادة منحتها لي اليوم ، سأسافر وكلي أمل وعزيمة ، وسأعود وكلي شوق وآمال .

قالت : وسأنتظرك إلى أن تعود . . . إلى آخر العمر يا حبيبي .

وهكذا تمت الخطبة في ليلة الوداع .

- ١٩ -

مضت الساعات كأنها دقائق ، وحمَّ الفراق ، واعتنق الخطيبان الحبيبان ، وكانت لحظة شهد فيها الناس فتى عربياً يبكي ، وفتاة هندية يغمى عليها من هول الفراق . ولم يكن هذا الفتى إلا صاحبنا أسامة ولم تكن هذه الفتاة إلا صاحبته كيتي ، وصفرت القاطرة منذرة بالمسير ، وأفاقت كيتي من إغمائها فهبت واقفة تلوّح بمنديلها للفتى الواقف بالنافذة يطل عليها بعينين مخضلتين بالدموع . وقبل قيام القاطرة بقليل أمسك أسامة بيدي كيتي فوضعت في يديه علبة صغيرة قائلة له : احفظها تذكاراً لي ، ولا تنسني . . . وتحرك القطار وابتعدت كيتي وابتعدت القاطرة

بالفتى ماضية به إلى صميم المجهول ، إلى حيث لا تعلم كيتي ، إلى بلاد الصحراء والخيام والنساء المحجّبات ، وفتح أسامة العلبة الصغيرة فإذا فيها خاتم من الذهب وقد نقش عليه اسمه واسمها ، وتاريخ أول لقاء لهما في المستشفى ، ودقق الفتى النظر في الفص الذي يزيّن الخاتم فإذا به على شكل تمثال بوذا ، حيث رأى كيتي لأول مرة تقرأ الإنجيل ، وإلى جانب الخاتم وجد منديلاً من الحرير الهندي ملفوفاً بعناية ففتحه وإذا هو يضم خصلة عطرة من شعرها الفاحم الجميل ، وقبّل الخصلة السوداء ولفها بعناية في منديلها الحريري ووضعها داخل العلبة ، أما الخاتم فقد وضعه في إصبعه . . . والقاطرة تسير مبتعدة عن كيتي ، وعن القرية السحرية التي قضى فيها ما يقرب من ثلاثة أعوام .

- ٢٠ -

وأخيراً آن للمسافر أن يلقي عصا الترحال ، وآن للغريب أن يعود إلى وطنه ، وذات صباح قدمت الباخرة جهانكير إلى جدة ، وعلى ظهرها فتى يلبس خليطاً من الملابس العربية والهندية ، كوفية حجازية وشالاً من صنع كشمير ، ومعطفاً هندي الطراز وثوباً قصيراً ، كأنه قميص طويل ، وسروالاً من البفتة ، إلا أنه كالبنطلون ، وألقت الباخرة مرساها ، وقدم عمُّ أسامة وصحبه فرحين مستبشرين ونزل الفتى إلى الزورق البخاري وسط مظاهر الترحيب والشوق من أهله الطيبين ، وصحبه الأوفياء . ووجد على الرصيف مظاهرة أخرى من معارفه وذوي قرباه وبقية الصحب والخلان ، وسار الفتى حتى وصل إلى البيت فوجد والدته ، وقد استحالت عجوزاً ! لقد غيَّرها الفراق ، فاستحال سواد شعرها إلى بياض ، ونحل عودها وذوت وسارع إليها الكبر كأنما مضى على بعده عنها عشرون حولاً ، لا ثلاثة أعوام . ومضت أيام الفتى الأولى رتيبة فارغة ، يلقى بها الناس أو يلقاه الناس مرحبين ، مستفسرين عن صحته وأحواله إلى آخر ما هنالك ، ويلقاهم مجاملاً ، ما أطلق المجاملة محدثاً ما هفت نفسه إلى الحديث ، وكان كل شيء حوله يذكره بما خلف وراءه ، بكيتي العزيزة ، وبالقرية الساحرة ، والحياة السعيدة ، التي يعتبرها تاريخه الحي حتى الآن .

ووجد الفتى وطنه كما خلفه أول مرة ، لم يطرأ عليه تغيير ، ولم يفكر أحد في إدخال أي اصلاح فيه ، وزاد على هذا أنه استمع إلى شكاوى الناس وخوفهم من

أن تحول هذه الحرب المنذرة أو تمنع عنهم ما يحمله إليهم البحر من طعام ولباس ، ومن كل ضروري وكمالي ، فقد كانت الحرب العالمية على الأبواب ، وزاده ما رأى وما سمع أسىً وهمّاً ، وفكّر حتى متى نعيش على هذا الحال ولم يفكر الناس في الرقي ببلادهم وحياتهم ليسايروا ركب الحضارة والعمران ، ولكنه عاد أكثر تفكيراً ، وأقل كلاماً ، فلم يكن يتحدث بهذا إلا إلى عقلاء قومه ، وخاصة صحبه ، فكان يجد مِن بعضهم استماعاً لما يقول ، وتأميناً على صحة كلامه ، ولكنه قلّما وجد من يفكر في الطرق العملية التي تأخذ بيد الأمة فتنهضها ، والتي تسير بالحياة الاجتماعية لبلاده في الطريق القويم . وكان الشبان يعتذرون بضيق ذات اليد ، وقلة الحيلة ، فإن من لا مال له ، لا حيلة له ، وكان الشيوخ والكهول يحمّلون الشباب مسؤولية العمل ، أما العاملون فقد كانوا لا ينطقون . . . ووجد أسامة إجماعاً من الكل بوجوب أن تعمل الحكومة كل شيء ، كأنما هم أشباح ليس لها وجود . . .

•

وانطوى الفتى على نفسه مفكراً في هموم قلبه ، وهموم بلاده ، ووجد في القراءة بعض السلوى فكان يقضي أغلب أوقات فراغه فيها ، ولكن هذا أورثه أسى وهماً ، وانطواءً لا يتفق مع حيويته الدافقة ، وطبيعته المرحة قبل أن يرحل إلى الهند ، ولاحظت والدة الفتى ما ينطوي عليه فتاها من هموم لا تعرف مصدرها ولا أسبابها فأخذت تسرّي عنه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ولكن أنّى لهموم قلبه أن تنصرف ، وهو لا يفتح عينيه إلا على ذكرى كيتي ولا يغمضها إلا عليها . وكان يعيش على ما يصل إليه من رسائلها ، وما يبعث إليها من رسائل ، وكثيراً ما كتب الرسائل إليها ، وقليلاً ما تلقّى منها ، فقد كانت الحرب قد أُعلنت ومضت الشهور وهو لم يتلقَّ منها سوى رسالتين لا يخرج ما فيهما عن أشواقها ، وشعورها بالفراغ الكبير الذي خلّفه بعده عنها ، وكانت هذه الرسائل كالبلسم لقلبه الجريح ، وكانت تدعوه دائماً لأن يعود بعد أن رأى والدته فإنها في انتظاره ولكن أنَّى له أن يعود ، وهذا البحر قد أقفل أبوابه ، وهذه والدته الحزينة ، ولا أمل لها ولا سند سواه . ومضت شهور أخرى فانقطعت رسائلها تماماً حتى يئس منها ، وازداد الفتى انطواءً وسكوناً ، وازدادت همومه وآلامه فأشارت عليه والدته بالرحلة إلى الطائف ، وكان الصيف قد أطلّ بشواظه ولهبه فرحل الفتى إليها ، وفي نفسه وقلبه آلام وهموم .

لم يكن الفتى غريباً عن الطائف ، فقد كان يعرفها قبل سفره إلى الهند ، ولكنه في هذه المرة نظر إليها بعين جديدة ، فقد كانت الطائف وما حولها من القرى تزيّنها الحدائق الناضرة ؛ والطيور المغرّدة ، والأزهار المتفتّحة ، وأثمار الشجر دانية القطوف ، تذكّره بالريف الهندي الساحر ، وبقرية جوكولا التي قضى فيها أجمل أيام عمره وأحلاها ، وألذ حقبة في شبابه وأغلاها ، وقد سعد الفتى بهذه الرحلة التي لم تقتصر على الطائف وحدها ، وأخذ ينظم وصحبه رحلات كثيرة إلى قرى الطائف وما حولها ، وكانت أهم الرحلات وألذها رحلته إلى الشفا في ديار بني سفيان ، فقد أُتيح للفتى أن يشهد من مناظر الطبيعة الجميلة ، وبساطة البادية وصفاء الفطرة ما أدخل على قلبه الكثير من السرور بما رأى ، والغبطة بما شهد وسمع ، وكان أعجب ما عجب له في رحلته تلك هو اللغة الصحيحة السليمة التي ينطق بها سكان هاتيك المناطق الجبلية فقد خيّل إليه أنه طوى القرون إلى أيام العروبة الأولى في صدر الإسلام فهو لم يسمع إلا كلاماً فصيحاً ، لم تخالطه اللهجات الأعجمية ، ولم يتطرق إليه الخلل والدخيل من الكلام ، فهذا طفل لا يبلغ الثالثة يتكلم العربية كما يتكلمها الأعراب الأقحاح - وما هو إلا عربي قح - وكان أسامة وصحبه يديرون الحاكي بأناشيد عبد الوهاب ، وأغنيات أم كلثوم ، فسأل أحدهم الطفل العربي ، وكان ابن صاحب المنزل الذي ينزلونه : ماذا يقول هذا ؟ وأشار إلى الفونوغراف . فقال الطفل - إنه يعالم - وسأل أحد الصحب ، وقد وصلوا إلى قرية الفرع ، وأطلوا على وادي تهامة من قمة عالية هناك عن أحد أهل القرية وكان يعرفه من قبل فقال المجيب : ذهب يحتش فتردى . وأمثال ذلك كثير ، وقد أتاحت هذه الرحلة لأسامة الكثير من التفكير فقد رأى البادية هنا لأول مرة على حقيقتها ، واتصل بالبدو اتصالاً قائماً على الرغبة في الدرس والفهم فأدرك أن هؤلاء هم أمل البلاد إذا ما أحسن تعليمهم ، وتثقيفهم ، وإذا هيأ الله لهم من يأخذ بأيديهم إلى نور الحضارة فهم خليقون إذاً أن يعيدوا لهذه البلاد تاريخها المجيد الظافر ، يوم كان العرب خير أمة أُخرجت للناس ، ويوم دانت لهم الدنيا بهداية سيد الكون محمد ﷺ ، وقيادة الإسلام وهديه ، وتعاليمه السمحة الكريمة ، وتمنى لو أُقيمت في كل قرية من قرى المملكة مدرسة أو حتى بناء بسيط ، وجعل فيها معلم يعلم أبناء القرية مبادىء القراءة والكتابة ، وقراءة القرآن وما إليه ، ولو أُقيمت في كل مدينة كبيرة تتصل

بالبادية كالطائف والمدينة وينبع مدارس كبيرة لتعليم أبناء البادية الذين يكونون قد تلقّنوا في مدارس القرى مبادىء التعليم ، وأن يمهد لهم في هذه المدارس سبيل المأوى والمسكن فتكون هذه المدارس على غرار المدارس الداخلية في مصر وغيرها ، وأن يبعث بالنوابغ منهم بعد إتمام دراساتهم الثانوية إلى الجامعات في البلاد العربية والافرنجية ليتلقوا دراساتهم العالية هناك ، ومن ثم يعودون إلى بلادهم وقد أخذوا من العلم حظاً عظيماً ، هناك أي نهضة يستطيع هؤلاء البدو النوابغ أن يقيموا أركانها في هذه البادية ، وأي كسب اجتماعي واقتصادي تكسبه بادية المملكة حينما نرى البدوي فيها وقد تعلم فأصبح في كل قرية الطبيب ، والمهندس الزراعي ، وصاحب الفندق المهذب ، والمزارع النشيط ، والمدرّس الذي يضطلع بأداء الرسالة العلمية لتنوير قومه والأخذ بهم في أسباب الحضارة والتمدين . وكان أسامة على مثل اليقين بأن هؤلاء العرب الأذكياء سيقبلون على العلم بنفوس ظامئة ، وقلوب متعطشة فيفيدون منه أعظم فائدة ، وفكر في أن يبدأ هو بالفكرة فيتخذ من إحدى القرى المتوسطة الموقع مكاناً يبني فيه بناءً بسيطاً من اللبن بمعونة أهل القرية ويجعل من نفسه المعلم الأول لأهلها ، فإذا ما أُتيح له أن يعلم عشرة فقط من أبناء القرية بعث بكل واحد منهم إلى قرية من القرى ، ووضع لهم نفس الخطة ليبعثوا بتلاميذهم إلى القرى الأخرى ، وهكذا لا تمضي سنون قليلة إلا وقد شملت القرى جميعها نهضة تعليمية شاملة ، وقال لنفسه وهو يحاورها : أي خير يحييه الله على يديك يا أسامة إن وفّقت إلى هذا العمل العظيم ، وأي عصا سحرية تضرب بها هذه البادية فتنهض من كبوتها وتفتح عينيها على الحياة الكريمة الصحيحة ؟ وأي سعادة تغمر القلب والنفس أكبر من أن ترى أن الله قد جعل على يديك إسعاد أمة ، وإنهاض شعب ؟ وتطرق بأفكاره إلى زعيم روحي عظيم من أهل وطنه قام بمثل هذا العمل ولكن في الحاضرة فأراد الله أن ينبت بذور العلم وثمراته على يديه في العصر الحديث ، ذلك هو الزعيم الروحي الكبير محمد علي زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح ، وقد كان أسامة يعتبره زعيماً له ورائداً روحياً ، ففكّر كم سيكون سرور الزعيم حينما يرى أحد أبناء وطنه وقد سار على نهجه وسلك السبيل الذي اختار ، وتمكّنت الفكرة من نفسه ، وأسر بها إلى بعض صحبه فوجد تحبيذاً وتشجّيعاً حينما كانوا يظنون الأمر مجرد فكرة ، فلما أخبرهم أنه يفكر في تنفيذ الأمر فعلاً لقي منهم التثبيط !! ولكنه كان قد حزم أمره وأخذ يعدّ العدّة لذلك ، وفكر

في أن المسألة لا تحتاج إلا إلى كثير من العزيمة وقليل من المال ، أما العزيمة فهي موجودة ، وأما المال فهو خليق أن يدبره ما أمكن التدبير ، وفكر في أمه وتمنى أن لو رضيت بالرحيل معه إلى هذه القرية من قرى الطائف أو تلك ، إذاً لتذلّل له ما كان عسيراً ، ولكنه كان يعرف أن أمه لا تستطيع أن تفارق جدة ، وما ألفت فيها من حياة متمدنة إلى خشونة هذه البادية وقسوتها وإلى الغرفة الضيقة التي ستكون سكناً له ولها ، بعد المنزل الفسيح ذي الأربع الطبقات ، وإلى الأثاث الريفي البسيط بعد الأرائك الوثيرة ، والفرش الغالية ، وإلى البدويات الجاهلات الساذجات ، بعد الحضريات الناعمات المترفات ، وفكر لو أن كيتي معه ، وأطلقها آهة من صميم قلبه ، إذاً لرحبت بالفكرة ولخلقت من الكوخ البسيط عشاً ساحراً ، ومن هذه الأرض الطيبة روضة من الجنات . . . !

ولكن أين هي كيتي ؟ إن الريف هنا كالريف هناك ، ولكن أين روح الريف ، أين الحبيب والأليف ؟! وقال أسامة لنفسه : لو أن والدتي على حظ من العلم لرأت في هذه الأفكار التي أحتضنها اليوم فرصة من فرص العمر ، ولأقبلت لتكون سيدة القرية ومعلمتها ، ولعلّمت النساء ، كما أعلّم أنا الأطفال والرجال . وآذنت الرحلة بالانتهاء ، وعاد أسامة وصحبه إلى الطائف ، وهو مصمّم على تنفيذ فكرته بعد أن يعود إلى جدة ويبحث الأمر مع والدته وقرر أن يبدأ العمل في الصيف القادم ، وعليه أن يدبر المال اللازم للبدء في المشروع خلال الشهور الباقية إلى مطلع الصيف الجديد . وفكر في أن يقوم بعد عودته إلى جدة بإعطاء دروس خصوصية في الانكليزية للراغبين وأن يضطلع بكتابة الرسائل التجارية لبعض التجار ، وقدر أن هذا كله سيفيده بعض المال ، إلى جانب ما سيقتصده من مرتبه ، وقرر أن يستغني عن كل ما يمكن الاستغناء عنه لتوفيره للمشروع ، وعليه أن يحضر معه عدداً من المصاحف ، والدفاتر والكتب المدرسية البسيطة وأدوات المدرسة الصغيرة ، وأن يشرع مسلحاً بالعزم والإيمان .

نحن نفكر ونقدر ، والأيام تمضي بنا إلى حيث يشاء القدر النافذ فتدفعنا إلى السبيل الذي ترسمه لنا الأقدار ، لا إلى السبيل الذي نرسمه نحن لأنفسنا ، والحكيم من استطاع تقبّل أحكام القضاء والقدر بالرضى والإيمان ، فأفاد من الحادثات وكيّف نفسه معها ، وأسامة لا يعدو أن يكون ذرة في بحر هذا الوجود الصاخب ، وفكرة في موجه المتدفق ، وهكذا ترسم له الأقدار كما سترى سبيلاً غير السبيل الذي رسمه لنفسه في قرية الفرع من أعالي الشفا ، وهو يطل على أودية تهامة البعيدة الغور .

كان أسامة وصحبه يقضون يومهم في بستان من بساتين المثناة يلهون لهو أهل الحجاز ، يقضون اليوم في لعب الورق ، والحديث ، فإذا أخذوا حظهم من هذا وذاك اجتمعوا إلى واحد منهم فأخذ يغنيهم أغاني مصر وينشدهم أناشيد الحجاز ، أو يطربهم طرب أهل صنعاء وعدن . وقضى الصحب يومهم في لهو ولعب حتى إذا كان الأصيل انطلقوا جماعات جماعات إلى البساتين المجاورة وإلى مسيل وادي وج ، وإلى تسلق الجبال المشرفة على الوادي كلٌّ حيث شاء ، وحيثما سوّلت له نفسه . وبينما أسامة وأحد خاصته يسيران في دروب المثناة الضيقة بين البيوت المبنية بالطوب الذهبي وإذا نافذة تفتح في إحدى الدور بصوت مسموع فرفع أسامة وصاحبه رأسيهما وإذا فتاة كأنه فلقة قمر ، وأحست الفتاة بالشابين فجرَت إلى داخل الدار ، وسار صديق أسامة ولكن أسامة وقف ، كأنما سمّرت قدماه .

لقد كانت هذه الفتاة تشبه كيتي شبهاً عجيباً ، وإذا كانت الأسطورة القائلة بالتناسخ فيها شيء من الحقيقة ، فهي اليوم أكبر الحقائق وأعظمها ، وطال وقوف أسامة فتنبّه صاحبه إلى شذوذ الموقف فأخذ بيده وسارا مبتعدين ، ولكن أسامة لم يهدأ له بال ، لقد وقعت هذه الفتاة من نفسه موقعاً عظيماً ، وهو يريد أن يعرف عنها كل شيء ، وسأل أسامة صاحبه عن الدار وأهلها فعرف أنها لرجل من الأتراك المقيمين بمكة وقد حضر للاصطياف بأهله واستأجر هذه الدار من ملاكها ، وعرف أن الرجل متوسط الحال وإلا لما لجأ إلى السكن في هذه الدار البسيطة . . . ولا نطيل القول ، فإن الفتاة قد سلبت لبّ أسامة ، وأهاجت شجونه ، فأخذ يعني بأمرها حتى استطاع أن يعرف عنها كل شيء ، هي وحيدة أبيها ، أما أمها فقد طلّقت من زمن و بنيت برجل آخر ، وأبوها رجل متوسط الحال ، إلا أنه يحب المال ويقدر أهله ، وقد خطبها كثيرٌ من أهل طبقته فلم يزوجها ، لأنه إنما يريد لها

زوجاً غنياً . وقال أسامة : وماذا لو خطبتها ألا يزوجنيها ؟ وقال له صاحبه : من يدري فلنجرب حظنا معه فلعل ما لوجهك من رواء ، وما لاسم بيتك من رنين أن يغري الرجل بالقبول . وتضاحكا . . وكان صاحب أسامة يعرف من أمره ما استتر ، وكان يعرف أن حبه لفتاة في مجاهل الهند ووفاءه لها ليس إلا خرافة كبيرة ، وقد ضربت هذه الحرب بينهما بأسوار وحجب من النار والحديد ، وخير له أن يتسلى ويتزوج بمن رآها شبيهة بتلك وهي خليقة أن تسعده وتنسيه . ولم يزل بأسامة حتى وافق مبدئياً على الفكرة ، فذهب صاحب أسامة ومعه رجلان من كبار أهل مكة يسبرون غور الرجل إن كان يوافق على تزويج ابنته بلقيس ، لأسامة ابن الشيخ أحمد الزاهر من أعيان جدة وذوي الأملاك فيها ، فأبدى الرجل شيئاً من القبول ولكنه اشترط لابنته مهراً غالياً ، فوافق المندوبون ، ورجعوا إلى أسامة يزفّون له البشرى . وكان أسامة يملك حصصاً في منزل كبير وبعض الدكاكين في جدة مما تركه أبوه فرأى أن يبيعها ويبني بالفتاة ويستعين بما بقي في تنفيذ مشروعه في تعليم البادية . واتفق الطرفان على إقامة العقد في مكة بعد عيد الفطر وقرأوا الفاتحة على ذلك ، وتحدد المهر بمائة جنيه من الذهب تدفع في مكة حين العقد ، أما الدخول فيكون في محرم بعد انفضاض الحجيج ، وهكذا فرط أسامة في عهده لكيتي وتناساها .

- ٢٣ -

لا بد لنا وأن نذكر نادرة لطيفة وقعت لأسامة قبل رحيله من الطائف ، فقد ذهب إلى أحد الخياطين من مهاجري بخارى لشراء حذاء لوالدته كانت قد أوصته به ، فهاله ما رأى من كثرة هؤلاء المهاجرين ونشاطهم ، وكان قد سمع الكثير عن ذلك ، ولكنه رأى الآن أكثر مما سمع وأدرك ببصيرته النفاذة أن هؤلاء القوم يسعون للسيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية إن لم يكبح جماحهم . ولا نطيل القول فقد انتقى الحذاء من بين أحذية كثيرة وأخذ يساوم صاحب المصنع واسمه « مخصوم عبد الحكيم السمرقندي » في الثمن فطلب الرجل ثمناً مرتفعاً وأصر عليه . فقال أسامة ضاحكاً : إنكم تحضرون إلى بلادنا وتزاحموننا أرزاقنا ثم تتحكمون فينا ؟! فقال مخصوم في لهجة ساخرة متكبرة :

أتعرف أيها الفتى اننا نصنع لكم ما لا تستطيعون صنعه لأنفسكم ؟!

قال أسامة : فلو أن لي من الأمر شيئاً لما أبقيت في هذا البلد أحداً منكم .

قال مخصوم : إذاً فستسيرون في الشوارع بلا سراويل ، لأنكم لا تجدون من يخيط

لكم سراويلكم . وغضب أسامة ورمى بالحذاء في وجه الرجل ، وكادا أن يتماسكا لولا أن تدخل بينهما الناس . وانطلق أسامة غاضباً يرغي ويزبد، وكان جماعة من تجار مكة والطائف في حانوت كبير يراقبون الحادث فلما أقبل أسامة مقترباً منهم دعوه وأفسحوا له مكاناً في الدكان ، وأخذوا يتحدثون إليه في الموضوع . قال كبير القوم - وكان رجلاً تبدو عليه المهابة - :

إن ما رأيته اليوم يا بني ليس إلا جزءاً يسيراً مما نراه كل يوم ، وكن على يقين أن الرجل - يقصد البخاري - خشي مغبة تماديه معك فإن في مظهرك وسمتك ونبل محتدك ما أخافه ، وفي جرأتك عليه ما زاده خوفاً ، ويبدو لي إن كان ظني صادقاً أنك قريب عهد بهذه البلاد وإن كنت من أهلها .

قال أسامة : نعم فإن لي عن الطائف خمس سنين ، وقد كنت بالهند عامين ، وأنا أسامة الزاهر من أهل جدة .

قال الرجل : فإننا نعرف أهلك وأنت من بيت كريم ، والطيب لا يلد إلا طيباً ، إني أعرف هذه الكرامة في جدك يا بني وقد كنت أنا شاباً مثلك وهو شيخ مثلي فلا عجب أن تكون أنت مثله وأنت من صلبه .

قال أسامة : ولكني لم أر قبل سنوات عدة ما رأيته اليوم من تحكم هؤلاء الناس وتماديهم وأخذهم بمرافق البلاد بين أيديهم ، وحرمان أهلها ومضايقتهم .

قال أحد القوم :

إن الداء قديم ولكنه لم يظهر على حقيقته وهوله إلا في هذه الأيام التي أعلنت فيها الحرب وامتنع الوارد من الخارج ، فقد رأى هؤلاء القوم أن هذه هي فرصتهم الذهبية فتكتلوا ، وأخذوا يؤلفون من بينهم شركات يحتكرون بها بعض الأصناف من السوق ، فإذا رأوا الدقيق مثلاً قليلاً ، بادروا إلى شرائه واحتكاره حتى يشعر الجمهور بفقدانه فيلجأ إليهم فيتحكّمون في أسعاره ويجنون من وراء ذلك الربح العظيم مستغلّين حاجة الناس إلى العيش ، وهكذا .

فأبدى أسامة عجبه من هذا ولكن رجلاً من الجماعة انطلق يقول :

والأغرب من هذا أنهم الآن يتكتلون بشكل مخيف ، فهم يختارون أحياء خاصة

لسكناهم ويحاولون أن يمتلكوها تملكاً ، لقد اغتنموا فرصة إسماح الحكومة بأراضي اليمانية في الطائف فأخذوا شوارع خاصة بهم ، فأنت الآن إذ تجول في أقصى اليمانية تجد بعض الشوارع وكأنها خاصة بأهل بخارى فقط ، وهم يحاولون مثل هذه المحاولة في المسفلة في مكة ، ولعل استئجار أحدهم للشارع الجديد الذي بنته مديرية الأوقاف في مكة يفسر لنا هذه النزعة إلى التكتل فيهم تفسيراً قوياً ، فإن أحد ثراتهم استأجر من مديرية الأوقاف هذا الشارع الجديد بما يحويه من حوانيت كثيرة ، وامتنع عن تأجير أي حانوت منها إلا لبخاري من بني جلدته . هناك هاج الناس لما رأوا وذهبوا إلى إدارة الأوقاف محتجّين ، وكان مديرها رجلاً حازماً فطناً فما كان منه إلا أن استدعى الرجل وأعاد إليه نقوده وأمر بتأجير الحوانيت فرادى للناس كافة حتى لا تكون موضع استغلال فظيع كهذا ، وألقى على البخاري درساً لا ينساه .

قال أسامة : ولكن أريد أن أعرف لماذا لا نحذو نحن حذو هؤلاء في نشاطهم ودأبهم ، إنهم من المؤكد لم يكوّنوا هذه الأموال إلا بالنشاط والدأب ، والكدح والجد ، وإلا لما أُتيح لهم أن يملكوا البيوت ويستأجروا شوارع كاملة ويحتكروا ما يريدون احتكاره من طعام الناس ولباسهم ، فأين تجار البلاد ، وذوو الرأي فيها ، وأين نشاط العاملين وجدّهم وثمرات أعمالهم ؟

قال أحد التجار ـ وهو رجل بادي الذكاء وكان صامتاً حتى الآن ـ :

إن هؤلاء القوم يا أخي يحاربوننا بسلاح لا نقدر عليه ، إني أحدثك كيف يتكوّن هؤلاء الناس وكيف يصبحون ثراة بعد حين .

يفد الوافد منهم من بلاده إلى مكة مثلاً فيختار لنفسه صناعة من الصناعات التي يحذقها ، وهي إما الطهي ، أو صناعة الجلود ، أو الخياطة أو الزراعة ، فيستأجر لنفسه حانوتاً صغيراً يتخذ منه متجراً ومسكناً ، ولعل أحد القوم يعطي للآخر نصف متجره ، فيطهي الطعام ويبيعه ، ويقتات بما لا يكلفه نفقة من بقايا طعامه ، وهو كل شيء في عمله يساعده ولده إن كان له ولد أو أولاد ، فيتوفر لديه المال الذي يصرفه المواطن في أسباب الحياة الضرورية والتكمل ، وهكذا نجد أن هذا الطارىء قد أصبح بعد سنوات معدودات قوة مالية فاتخذ حانوته في الشوارع الرئيسية ، ووسع من أعماله فأصبح عماله كثيرين بعد أن كان هو التاجر والعامل ، وأصبح ذا ثروة تتيح له التحكم في رقاب الناس ، واستغلال ضروراتهم ، بينما لا تتطور حياته إلا تطوراً بسيطاً فهو يبدأ بالاستحواذ على قطعة أرض في

الضواحي يقيم عليها أولاً بيتاً من الخشب أو الصفيح فإذا كثر ماله بنى البيت بالأحجار ، وهو نفسه البناء والنجار ، يقوم هو وأسرته ببناء البيت وتأثيثه ، وهكذا حتى إذا أثرى لا ينتفع المواطن بفضل ثرائه ، فنحن لا نستطيع أن نجاري هؤلاء الناس ما دامت حياتنا الاجتماعية تتطلب منا مظاهر خاصة تكلّفنا نفقات طائلة ، وما دمنا نعطي كل ذي حق حقه في حياتنا ومعاشنا .

قال أسامة : فإن من واجب الحكومة أن تضع من النظم ما تحمي به المواطن المقيم ، من الغريب الطارىء وإلا فإن اليوم الذي لا نجد فيه في المدن الكبيرة مقاماً سيكون قريباً ، وإني لأخشى أن يصبح المواطنون غرباء فيلجأون إلى منى وعرفات كما تلجأ إليها البقية الباقية من قريش اليوم .

فأمن القوم على كلامه ، واستأذن أسامة وانصرف وهو يفكر في ما شهد وما سمع من حوادث وأحاديث...

- ٢٤ -

كان سرور والدة أسامة بعودة ابنها عظيماً ، وقد ضاعف هذا السرور ما أسره إليها من حديث خطبته وأخذه في البناء بمن رغب ، وكانت تودّ من كل قلبها أن تشهد هذا اليوم - كما كانت تقول له في كل مناسبة - ولعلها بهذا كانت تفكر من غير قصد أن الزواج يتيح له الاستقرار والهدوء ، ولا يجعله يفكر في الرحلة إلى الهند كما كان يقول لها أحياناً . وكانت تودّ لو أنه تزوج من بلده ومن إحدى الفتيات التي تختارها له ، ولكنها لم تجد الآن مجالاً لهذه الأمنيات ، وقد أصبح الأمر حقيقة لا تحتمل التبديل .

وأخذ أسامة وأخذت والدته معه يعدّان العدّة لليوم الموعود فبدأ بعقاره فباعه ، وكانت أمه تحتفظ بحلى ثمينة من اللآلئ والمجوهرات فقدّمتها له فاختار منها شيئاً قليلاً للعروس ، وباع الباقي بثمن مرتفع ، وأصبح في يد أسامة ما يكفيه للزواج ويفيض عن حاجته ، فإن الحرب قد رفعت من ثمن العقار والحلى إلى حد لم يكن يخطر له ببال .

واقترب الموعد المحدد للعقد وأخذ أسامة وذوو قرابته يتهيأون للرحيل إلى مكة وإذا كتاب يرد لأسامة من أحد الرجال الذين توسّطوا بينه وبين والد العروس ينبئه فيه أنه يأسف ليخبره أن الرجل قد نكص بوعده ، وأنه قد زوّج بلقيس إلى مخصوم السمرقندي تاجر الأحذية الشهير بالطائف ويدعوه إلى أن يحمد الله الذي أنقذه من مصاهرة هذا الرجل

الذي لا يستحق المصاهرة . . . وفي آخر الكتاب حاشية ذكر له فيها أنه تقابل مع الرجل وسأله عن السبب الذي حدا به إلى فعل ما فعل ، فقال إنه استفسر عن حالة أسامة فوجد أنها متوسطة بينما أن مخصوماً هذا غني ويملك حانوتين بهما عشرات العمال ، وقد دفع مائة وخمسين جنيهاً لابنته مهراً !!

كانت هذه الأخبار السيئة مؤلمة لقلب أسامة ، ولعلّنا نكون أكثر دقة إذا قلنا إنها مؤلمة لكرامته أكثر ، فقد كان يحس أن لكيتي في عنقه ديناً قد أخلّ به فهو خطيبها وحبيبها وما كان له أن يستبدل بها خطيبة أو حبيبة مهما كانت الحال . حقاً إن الحرب قد قطعت ما بينهما وإنه منذ عام لم يتلق رسالة منها ، ولكن من ذا الذي يعرف إن كانت ما تزال وفية على عهده ، مبقية على حبه أم استبدلت به حبيباً وخطيباً بعد أن يئست من عودته ، كما يئس من عودته إليها ؟ ولكن ماذا تكون الحال لو انفضّت هذه الحرب ، وأتاه كتابها تستنجزه الوعد وتدعوه إلى الحضور ، أو تخبره أنها قادمة إليه ، وفزع أسامة إلى غرفته حزيناً يخالط قلبه الأسى ، فرحاً أن كانت الأقدار منعته من خيانة فظيعة كاد يرتكبها في حق من وهب لها نفسه ووهبته حياتها . . . وأقسم على نفسه ألّا يفكر في الزواج من غيرها ما عاش . . ولكن بلقيس هذه الزهرة التي تشبه كيتي شبهاً عجيباً أيستحقها هذا الفظ ، مخصوم السمرقندي الذي ضربه أسامة بالحذاء في وجهه ؟ وهاله أن ينتصر مخصوم السمرقندي في معركة الزواج عليه وهو ابن الوطن المثقف ومن خيرة قومه !!

وقال أسامة لنفسه إن هذا الرجل لم ينتصر عليَّ إلا بماله ، وإني أعتبر انتصاره هذا ليس طعناً في شخصي وإنما طعناً في وطني ، ولأحاربنّه وقومه بنفس السلاح الذي يحاربون به الوطنيين وبأقوى منه وأنفذ . . وأخذ يفكر في الأمور طويلاً وخرج من غرفته وقد أسر في نفسه أمراً .

- ٢٥ -

لم يمض أسبوع على هذا الحادث حتى كان أسامة قد غادر جدة بالطائرة إلى مصر ، وكان قد كتم أمر فسخ الخطبة إلا عن والدته التي تألّمت لهذا الحادث ألماً عظيماً ، وأخبرها أنه سيسافر إلى مصر في رحلة قصيرة للسلوى وترك لها مهمة إعلان فسخ الخطبة بالشكل الذي تراه ، وكان قد أعاد إلى أمه قيمة ما باعه من حليها فأبَت أن تأخذه باعتبار أنه أهدى إليه منها ، فطلب منها أن تحتفظ به أمانة لديها وسافر إلى مصر وفي نفسه عزم على العمل والجد .

لم يستوقف نظر أسامة ما في مصر من فتون وفنون بقدر ما استهواه ما رأى من عظمة البلاد ورقيها ، وآلمه كثيراً أن يرى أن اقتصاديات مصر ليست في يد أهلها ، بل هي في أيدي الأوروبيين وفي أيدي اليهود بصورة خاصة ، فالمتاجر العظيمة التي زارها ، والبنوك والشركات ، كانت كلها أجنبية أوروبية أو يهودية : شيكوريل،أورزدي باك ، جاتينو ، جروبي ، شملا ، عدس ، الخ .. الخ .... كل هذه أسماء يهودية ، إذاً أين المصريون ، وهذه بلادهم ، وتلك ثرواتهم ؟ ولم يهدأ له خاطر ، أو تقر له عين إلا حينما ذهب إلى بنك مصر ، هناك شعر بالعزة تغمر نفسه ، وترفع رأسه ، وهناك انتحى ناحية مستنداً إلى أحد أعمدة البنك ، وصلَّى صلاة خافتة حمداً لله ، وشكراً له أن رأى بعينيه وفي هذه البلاد الشقيقة بناءً مصرياً خالصاً ، وذكر الزعيم طلعت حرب ، الرجل الذي بنى لمصر صرحها الاقتصادي المتين ، وآلى على نفسه أن يتخذ من طلعت حرب نبراساً وإماماً ، وتمنّى لو يمد الله له في العمر فيعمل في وطنه ، ما عمله طلعت حرب في وطنه ، هناك تقرّ نفسه عيناً ويطيب قلبه بما عمل ...

لقد علمته مصر أن استقلال الأمة الاقتصادي فرع من استقلالها السياسي ، وأن على المواطن اليقظ أن يبني لوطنه مالاً وعلماً إلى جانب ما يتطلبه لها من عزة وكرامة ، فما فائدة الاستقلال في وطن لا مال له ، أو في شعب جاهل فقير ؟!

اتصل أسامة بمصانع الجلود والدباغة في مصر ، وأُتيح له العون في شخص رجل كريم تعرّف إليه في الحجاز قبل سنوات ، وكان رجلاً يحب البلاد المقدسة وأهلها ، وقد اتصل به أسامة فور وصوله وأخبره بغايته ، وهي تتلخّص في أنه يريد أن يؤسّس في بلاده معملاً للأحذية والصناعات الجلدية ليتيح لنفسه أن يعمل في خلق صناعة جديدة تعتمد على ما تنتجه بلاده من خامات . وأصغى الرجل بسرور إلى حديث أسامة ، وطلب رقماً من سكرتيره بالتلفون ، وتحدث إلى شخص ما ، ثم أخذ أسامة في سيارته إلى خارج المدينة فوجدا هناك معملاً كبيراً للأحذية ، وأخذ الرجل بيد أسامة إلى غرفة مدير المصنع وشرح له الغرض من زيارته ، وعرَّف أسامة إلى المدير فرحّب الرجل بهما خير ترحيب ، وكان مما قاله مدير المصنع لأسامة :

إني لكثير السرور أن أرى شاباً في مثل سنك يفكر في عمل كهذا ، ولطالما كانت هذه الفكرة تشغلني وأمثالي من تجار الجلود ، فإني أعرف أن الجلد الحجازي جلد ممتاز ، وهو يصلح في أصناف كثيرة من الأحذية وخلافها ، بل إن قسماً منه يصلح في الصناعات

الجلدية الراقية التي تشبه الحرير في نعومتها . وأخرج الرجل من درجه نماذج من جلود حجازية ، وقال : لقد أحضرت هذه الجلود من الحجاز لدراستها وقمنا بدبغها هنا وكانت النتيجة حسنة جداً ، ولكنكم في حاجة إلى مصنع للدباغة أولاً ، وفي حاجة قبل كل شيء إلى تنظيم الذبح . ثم التفت إلى أسامة وقال: إن المشروع الذي تفكر فيه يا بني عظيم جداً فهل درسته دراسة وافية ؟

قال أسامة : إنني يا سيدي شاب ناشىء ، رأيت في يدي شيئاً من المال ، ورأيت الجلود في بلادنا كثيرة ففكرت في أن من الخير أن نستفيد من جلود بلادنا ، ونصنع لأنفسنا ما يمكننا صنعه من هذا الجلد ، بدلاً من أن نخرجه خاماً بأبخس الأثمان لنعود إلى شرائه مصنوعاً أو مدبوغاً بأفدح الأثمان . أما الدراسة فهأنذا بسبيلها اليوم . لقد استعنت بمحمد بك ليضع لي الخطة التي أستطيع بها تنفيذ مشروعي فذكر لي اسمك ، ووصفك بما أنت له أهل ، وقال إنك صاحب صناعة وتخصص وإن من الخير أن نستنير برأيك في هذا السبيل .

سُرَّ الرجل من جواب أسامة ، وقال له : إني لا أكتم إعجابي بك ، وإني لأتمنّى لك مستقبلاً زاهراً يتفق مع ما يضطرم في قلبك من طموح ، وإني لأرى أن الفرصة سانحة في هذا الوقت لأن نعمل معاً عملاً مفيداً . وخلاصة ما أراه لك أننا سنجهزك من هنا بالآلات اللازمة لصناعة الجلود وهي بسيطة جداً وقليلة الثمن ، وأهم ما في المشروع الدباغة ومن المستحيل أن نعمل لك شيئاً فيها الآن ، ولكني أرى أن تصدر لنا جلوداً خاماً من الحجاز لقاء أن نصدر لكم جلداً مدبوغاً بنسبة ما يستحقه الجلد الوارد منكم من ثمن ، وأعتقد أن حكومتنا ستوافق على هذا الحل لأنه يتيح لنا الحصول على جلود كثيرة ، يمكننا دبغها في مدابغنا . وسأرسل معك من هنا عاملاً من أنجح العمال ، وهو لحسن الحظ يحب الحجاز وأهله . هذا العامل سيؤسّس المصنع ، ويديره ، ويقوم بتدريب العمال الحجازيين الذين ستحضرهم له . وأنصح لك أن تختار من الصبية الصغار فإننا نفيد منهم كثيراً . وسأحضر في زمن الحج لأسعد برؤ يتك هناك ولأرى نتائج العمل . وأخذ بيد أسامة إلى داخل المصنع فشهد الآلات التي تعمل في قص الجلد ، والمكائن التي تخيطه ، ورأى أطفالاً من التاسعة إلى الثانية عشرة يعملون في تسمير الأحذية وترتيبها . وسرّ أسامة بما رأى وأخذ يتفقّد كل شيء ويسأل عنه مستفسراً ، وتمنى أن يكون له في أقرب زمن مصنع كهذا في الحجاز .

ولا نطيل القول ، فقد وُفّق أسامة في رحلته تمام التوفيق فلم يمض شهر واحد حتى كان قد أتم شراء الآلات المطلوبة وبعض المواد الضرورية ، وقد وجد أسامة من مدير

المصنع والرجل الذي عرّفه إليه كل عون ، فقد ذلّلا له كل عقبة ، ولم يضع هو وقتاً إلا استغله في عمله . وبعد أن رتّب أمر الشحن وما إليه توجه إلى الحجاز عائداً ومعه المدير الذي اختاره له مدير المصنع ، وعاملان آخران.

عاد الجميع إلى جدة ، واحتاج أسامة إلى المال الذي وهبته له أمه فأخبرها بما فعل فقدمت إليه المال وقالت : إنه لك ، وإذا احتجت إلى غيره فأخبرني ، فإن لديَّ حلياً أخرى قد تنفعك فيما أنت مقدم عليه ، وليسدّد الله خطاك .

- ٢٦ -

اختار أسامة بمساعدة مديره المصري أرضاً بيضاء في طرف المدينة مما يلي طريق مكة فاحتكرها من البلدية وابتدأ في إنشاء مصنع بسيط عليها ، وكان أهل جدة يشهدون البناء في هذا الطرف النائي من المدينة فيتشدقون : باع البيت ، وحصص الدكاكين ، والحوش في قلب المدينة ، ليبني حوشاً في آخر الدنيا !! إنه ولدٌ مجنون ، لا حول ولا قوة إلا بالله . ولكن أسامة لم يكن يلقي بالاً إلى شيء ، كان منصرفاً بأجمعه إلى عمله ، ووصلت الآلات ، وتم بناء المصنع الصغير المكوّن من عدة غرف والذي يحيط به الفضاء من كل ناحية فهو قابل للاتساع كلما اتسع العمل .

ولم يكن البدء هيناً ولا يسيراً ، فالعقبات كثيرة ، ولكن همم العاملين لا تقف في سبيلها مصاعب أو عقبات ، فقد شعر أسامة أن ماله لا يكفي لإنشاء مصنع كبير ، ولا لشراء كميات كبيرة من الجلود ، وآلات كثيرة ، وكان يود لو ألّف شركة لهذا الغرض ، ولكنه إذ أسرّ بهذا إلى بعض أصدقائه نصحوا له بألّا يفعل فإن الناس لا يثقون بأمثال هذه المشروعات الخيالية ، ومن الغريب أن صناع الأحذية في وطنه حينما علموا بعزمه على تأسيس المصنع أخذوا يرهبونه ويخوفونه مغبة التهور ، ونصحوا له بالتخلص منه وبيعه بأي ثمن لأصحاب الصناعة وحذاقها ولكن عزمه كان من حديد .

اقتصر على بناء مصنع بسيط ، واكتفى بالآلات القليلة التي لديه ، واشترى من الجلد ما استطاعه وصدره إلى مصر ، وما ان تم تركيب الآلات حتى كانت الجلود المستبدلة من مصر قد وصلت وبدأ المصنع ينتج أحذية وشنطاً ، وكانت الصناعة جيدة وإن لم تكن كاملة ، والأسعار معتدلة وإن لم تكن رخيصة . وساعد أسامة على النجاح ما أوجدته الحرب من ظروف خاصة جعلت استيراد الجلد وصناعاته عسيرة مرتفعة الثمن ، وأقبل

الناس على صناعة بلادهم إقبالاً حسناً ، وفي شهور قلائل كان المصنع قد أثبت وجوده كعامل هام في صناعة الجلد والأحذية ، واستطاع أسامة بمعونة الرجال المخلصين في وطنه أن يجد تشجيعاً قوياً ، فأصبح متعهداً بصنع أحذية الجيش ولوازمه الجلدية ، ثم أصبح متعهداً بصنع أحذية البوليس ولوازمه ، وتدفقت الأموال في خزائنه ولم تمض سنتان حتى كان المصنع كبيراً والإنتاج ضخماً ، وعلى درجة عالية من الجودة والإتقان ، واستزاد من الآلات ما أمكنه أن يستزيد ، وكان كلما لقيته مشكلة سارع إلى حلها ، وكثيراً ما كان يسافر إلى مصر وسورية وغيرها لاستيراد ما يلزم لمصانعه ، وكان يجد تشجيعاً وترحيباً أينما ذهب ، وفي العام الثاني حضر مدير المصنع الذي قام بتحقيق المشروع للحج فسره كثيراً ما رآه ، واحتفل به أسامة احتفالاً بالغاً ، وكان الرجل قد دخل في مقاولات كبيرة مع جيوش الحلفاء فرأى أن يشرك مصانع أسامة فيها ، لأن مصانعه وحدها لم تعد كافية ورحل أسامة بصحبته إلى مصر ، واستطاع في هذه الرحلة أن يحصل على نجاح أعظم طالما تاقت نفسه إليه ، فقد حصل على معمل كامل للدباغة لم يكن أصحابه قادرين على الإفادة منه لقلة المواد فاشتراه منهم وأرسله إلى الحجاز مع جماعة من الدباغين الفنيين ، واستطاع أن ينشىء مصنع الدباغة إلى جانب مصنع الجلود فكان عمله بهذا على وشك الكمال ، وبذل كل جهد لنجاح العمل فأصبح الجلد الحجازي يدبغ في هذا المصنع الحجازي وبأيدي الحجازيين وأساتذتهم من المصريين . وتضخّم العمل وكبر واتسع ، فأصبح لأسامة وكلاء في جميع أنحاء المملكة يشترون له الجلود ويرسلونها إليه ، واستطاع أسامة بوساطة البلديات وضع نظم خاصة للمذابح بحيث يكون الذبح على طريقة فنية لا تتلف الجلد ، وقبل هذا كان يدفع جوائز للذباحين الذين يحسنون الذبح طبق الأصول التي يشرحها لهم ، وما هي إلا العزيمة والجد حتى أصبح العمل كاملاً في جميع أجزائه .

أخذ أسامة بعد هذا يفكر في خلق صناعة جديدة إلى جانب صناعة الجلود ، فهو يريد أن يستثمر الثروة الحيوانية والقومية لبلاده ما أمكنه الاستثمار ، ففكر في هذه الأصواف التي تكون على الجلود قبل الدبغ ، إن من الممكن الاستفادة منها وعزلها وخلق صناعة محلية أخرى منها ، وعلم أن في سورية والعراق مصانع للأصواف الحيوانية ذات قيمة ، فطار إليها وتعرف إلى أصحابها وشرح لهم فكرته ، ووجد منهم تشجيعاً كالذى وجده في مصر ، فكان يرسل إليهم أشعار الحيوانات ليستبدل بها غزلاً بنسبة معينة واستطاع الحصول على آلات للنسيج يدوية فأحضرها مع جماعة من الفنيين وأسس مصنعاً لنسيج العباءات

الصوفية ، الخفيفة والثقيلة وما إليها ، وأخذت أعماله تتضخم ، وواتاه النجاح إلى درجة لم يكن يتصورها ، فأصبحت له مراعٍ خاصة بالماشية لتربيتها على الطرق الفنية الصحيحة بحيث يمكن الاستفادة من أشعارها وأصوافها وجلودها وأوبارها استفادة تامة ، وقد رأى أن أمواله على سعتها لا تتسع لكل هذه المشروعات العظيمة التي يفكر فيها فأخذ يجعل لكل مشروع شركة خاصة يساهم هو فيها بنسبة لا تقل عن النصف ويطرح الأسهم الباقية للاكتتاب العام . وكان اسم أسامة الزاهر ومصانعه قد أصبحت مثلاً سائراً على النجاح والجد ، فأقبل الناس على الاكتتاب في شركاته إقبالاً أثلج قلبه ، فأسس شركة الجلود ، وشركة المدابغ ، وشركة المراعي ، وشركة النسيج ، وأخذ يفكر بعد هذا في صناعات أخرى ، وقد أتيح له أن يحقق الفكرة التي اختمرت في رأسه وهو يطل على أودية تهامة ، فالمراعي التي اختارها لتربية الحيوانات كانت في وادي فاطمة والأودية المتصلة بها ، فاشترى هناك مزرعة استخدم فيها كثيراً من الرعاة البدو ، فبدأ بتنفيذ فكرته بينهم ، فكان أول ما يعمله حين شراء المزرعة بناء مسجد فيها ، يرسل له إماماً من المدينة وكان هذا الإمام يقوم بالصلاة في المسجد ، ويعلم الناس واجباتهم الدينية ، كما كان يعلم أبناء القرية مبادىء القراءة والكتابة . وكان أسامة يغري الأئمة بالمرتبات الضخمة ويحسن لهم الإقامة بأسرهم في القرى ، ويبني لهم بيوتاً صغيرة للسكن ، ويسمح لناظر المزرعة باعطائهم مرتبات من الخضار والفواكه ، ومن خيرات المزرعة الأخرى كالبيض واللبن والدجاج . وكان أسامة يقضي عطلته الأسبوعية في هذه المراعي فيحضر كل أسبوع إلى إحدى مزارعه مع خاصة صحبه ومعاونيه متفقداً أحوال العمل ، والمدارس الصغيرة ، ثم وضع إلى جانب هذه المدارس مستوصفات صغيرة مجهزة بمختلف الأدوية ووضع في كل واحد منها حكيماً أو معاون حكيم ، واتفق مع بعض الأطباء على زيارات أسبوعية لهذه المزارع لتفقد أهلها وتطبيبهم في الأمور التي لا يقدر عليها الحكيم المقيم ، وكانت سيارة المزرعة تنقل المرضى الذين لا يمكن الصبر عليهم إلى مستشفيات المدن القريبة لتطبيبهم ، أما في مصانعه الكبيرة في المدن فقد أوجد نظّام تعليم أبناء العمال والمعاشات ووظف طبيباً خاصاً ، وأنشأ مستشفى ومسجداً ، وملعباً في كل مصنع من المصانع . وحسّن للعمال المساهمة في الشركات التي يعملون في مصانعها حتى يشعروا أنهم يعملون في أموالهم ، ومصانعهم ، وكان يعطيهم نسباً معينة من الأرباح ليجوّدوا أعمالهم وليكون لهم نصيب من الربح فيما ينتجون . وكان أسامة يرسل سنوياً إلى مصر بعثات للتخصص في الصناعات التي تقوم بها شركاته ، كما كان يبث روح العمل والعزم حيثما حل وأينما رحل ، وبهذه الصفات أصبح

أسامة محبوباً لدى الشعب والحكومة ، محبوباً لدى عماله وموظفيه يفدونه بأرواحهم ، ويستميتون في سبيل مرضاته ، وكان هو يحدب عليهم ويحنو على صغيرهم ، يلاطف الفتيان ، ويتفقد الشيوخ ، ويعنى بالصغار ، ولكنه لا يتسامح في الإهمال أو سوء الخلق .

- ٢٧ -

الحرب في مراحلها الأخيرة ، وأسامة متعب بعد أن مضت عليه سنوات خمس في عمل دائب وتفكير مستمر ورحلات متواصلة ، وقد ذهب إلى إحدى مزارعه في الطائف فإن المراعي كثرت والمزارع أصبحت مقسمة في مناطق كثيرة من البلاد ، في الطائف وحول مكة ، وجدة ، والمدينة ، وينبع والحلم القديم أصبح حقيقة عظيمة ، تثلج القلب ، فهذه المزارع في كل منها مدرسة صغيرة ومسجد ومستشفى ، وهذه المصانع تغص بمئات العمال وهو يفكر فيما يأتي به السلام وما ينبغي له من مشروعات جديدة ومن تجديد لمصانعه ، ومن مكافحة للواردات الخارجية التي ستؤثر على منتجات مصانعه وتزاحمها ، وبين يديه تقارير كثيرة من رؤساء العمل ، ومديري الشركات يقرأها في تؤدة ويوقّع عليها بما يراه ، وأقبلت أمه وكانت تصحبه في هذه الرحلة فرأته منهمكاً في أوراقه وتقاريره فلم يحس بمقدمها ، وتعب أسامة فأسند رأسه إلى وسادة وثيرة وأغمض عينيه وقال لنفسه يحدثها : ثم ماذا . . ؟ فقالت أمه وهي تداعب شعره بيديها ، ثم ماذا ؟ لقد وخط الشيب رأسك يا بني وأنت لم تتزوج بعد ، لمن ستترك كل هذه الدنيا العظيمة ، وكل هذا المجد ، وإلى متى تعيش محروماً وأصغر عامل من عمالك سعيد منعم ؟

فسكت أسامة وأطلقها آهة من صدره حرَّى ، ثم التفت إلى أمه وقد تذكر كيتي ، كيتي الحبيبة الغائبة ، إنها هي وحدها التي تصلح له اليوم ، وقبل اليوم ، وبعد اليوم ، لقد فكر فيها قبل أن يحضر إلى هذا المكان ، وحينما كان في مكان شبيه به في قريتها الساحرة من ريف الهند ، وفكر فيها يوم عزم أن يعمل مدرساً في قرية من قرى الطائف ، وهو يطل على وادي تهامة العميق ، من مرتفعات الشفا ، وهو يفكر فيها اليوم وقد أصبح رجلاً عظيماً واسع الثراء ، وقد حقق لأمته ولقومه ما يريد ، وسيحقق إن مدَّ الله في عمره كل ما يريد . وقلبه ونفسه هو أليسَ لهما عليه حق ؟ إنه امرؤ يعيش بلا أمل وبلا حب ، إنه يعيش على الذكريات ، وما أمرها وأحلاها . . . ورأت أمه صمته وشجونه فلم تزد ، وانطلقت إلى حيث دعتها وصيفة من الوصائف لترى بدوية مريضة كي تعطيها شيئاً من الكنين فهي الآن تقوم بما كان يمكن أن تقوم به كيتي لو كانت هنا !!

وسرح أسامة بصره في المزرعة الجميلة الخضراء ، وشاهد القطعان وهي ترعى العشب السندسي ، والطيور توصوص ، والأزهار متفتحة تنفح الشذا والعطر ، وقال لنفسه : إن لنفسك عليك حقاً فلتأخذ حظك من الراحة اليوم ، وطوى الأوراق وفتح درج المكتب فإذا علبة صغيرة تطالعه ففتحها مستغرباً وإذا فيها خصلة شعر تلك التي أحبها ، والتي تسلمها من يديها والقطار يتحرك ، وهي تقول : لا تنسني ؟

أجل إنه اليوم متذكر ، وكل شيء يذكّره بكيتي وما أعذب الذكرى ، وما أمرّها في قلبه الحزين . . .

أين هي اليوم ؟ وهل تذكره كما يذكرها ؟ وهل تحنّ نفسها إليه ويهفو قلبها شوقاً ، كما يهدهده الحنين ويبرحه الشوق ؟ لها الله وله لشدّما أحبها و شـدّما هو إليها مشتاق .

وألحّت عليه الذكريات فزادته ألماً وهمّاً ، وكان الحج قد أطلّ وأقبلت مواسمه ، وكانت له عادة أن يحج في كل عام بمن يفد إليه من ضيوف ورجال أعمال ، في صحبة كبار رجاله وصحبه ، فكتب إلى معاونه يخبره برغبته في الراحة هذا العام ويعهد إليه بالحج بدلاً عنه ، ولكن برقية قبيل الحج وردت إليه من مكتبه بوصول أحد كبار الصناع المسلمين ورغبته في لقائه ، فعاد مسرعاً إلى جدة وبه تعب ، وفي نفسه آلام ، وحجّ كما كان يحج كل عام مع ضيوفه ورجاله ، وكان الضيف الذي وفد عليه هذا العام يرغب أن يرحلا معاً إلى أوروبا وأمريكا ، فالحرب قد انتهت ، والهدنة قد أعلنت ، والقنبلة الذرية قد جعلت من اليابان أمة خاسئة ذليلة ، ومصانعه القديمة تحتاج إلى تجديد ، ومشروعاته الجديدة تحتاج إلى تنفيذ ، ولكنه كان متعباً ، وكان يفكر في هذا ويفكر في نفسه مرة أخرى . . .

- ٢٨ -

الوقت ضحى ، واليوم يوم عيد الحج الأكبر ، ومنى تموج بعشرات الألوف ، بل بمائة وخمسين ألف حاج من جميع البلدان ، وفي شتى الأشكال والألوان ، أزياء مختلفة ، وألوان متباينة ، وألسنة تنطلق بكل اللغات ، وأسامة في ملابس الإحرام يحمل في يديه الحصى ليرمي جمرة العقبة وهو بادي الإجهاد ، يحمل له خادمه الأمين شمسية يظلله بها ويحاول أن يجد لسيده طريقاً ، وتقدم أسامة فألقى بالحصوات ، واستقبل القبلة يدعو الله بما شاء ، وإذا رجل هندي في ملابس الإحرام له لحية طويلة لم يبق من سوادها إلا القليل ، وخلفه امرأتان تسيران ، ونظر الحاج الهندي إلى أسامة متفرساً وهو منهمك في دعائه ،

منشغل بالتأمل في هذه الأمواج البشرية العظيمة ، وفي هذا الدين العظيم الذي يجمع الناس من شتى الأقطار في هذه البلدة النائية التي لا تسكن إلا أياماً ثلاثة في العام .

وتقدم الرجل إلى أسامة وأمسك بكتفه ، فالتفت فإذا هو أمام رجل لا يكاد يذكره . قال الرجل : أسامة صاحب . . . السلام عليكم .

قال أسامة : وعليكم السلام . . . الحاج أكبر علي ؟

قال : نعم أنا هو الحاج أكبر علي ، وقد أُتيح لي أن أحضر حج هذا العام بعد أن قطعت الحرب طريق الحج علينا سنوات . والتفت الحاج أكبر وقال لأسامة : وهنا سيدتان معي أظن أن لك بهما معرفة ! وتلفَّت أسامة فإذا كيتي وأمها !!!

أية معجزة وكيف قدما ؟!! وأقبلت كيتي فتلقاها أسامة بكلتا يديه ، وكانت حينما وقع بصره عليها تتأمله والدموع في عينيها . . . . ، وأمها تبتسم ، وهما في ملابس الإحرام البيضاء سافرتين ساحرتين : مرحباً بك يا كيتي ، وأنت يا والدتي ، أهلاً بكما . وكان ترحيبه من القلب ، وقالت والدتها: لقد تعبنا كثيراً حتى رأيناك ، لست تدري ماذا لقينا بعدك يا بني ، إن كيتي كثيرة الشوق إليك ، أما هي فلم تنطق بل استندت إليه تكاد تسقط إعياءً وحباً . . . . ، ووقف الزمان عن حركته ، ولم يعد يرى أسامة في هذا الموج المتلاطم ، إلا هذه الفتاة الهندية ذات الوجه الأصفر الجميل ، وهذا الشبح الأبيض كالملاك يرفرف بجناحين من نور . . . وقال أكبر علي : أرى أن نذهب إلى الدار الآن فالطريق مزدحم . وتنبّه أسامة فقال : نعم إلى الدار . . . إلى دارنا فانكم ضيوفنا منذ اليوم . . .

وانطلقوا إلى البيت ، والحاج أكبر يسير بجانب أسامة وكيتي تحيط أمها بها ويسندها أسامة بذراعيه والخادم يفسح لهم الطريق .

قال الحاج أكبر :

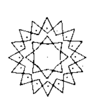
لقد سافرت إلى جوكولا مع ابنتي فقد مرضت ووصف لها الطبيب تلك القرية فتعرفت هناك ببلقيس وأمها ، وأشار إلى كيتي . فنظر أسامة إليها مستغرباً فتبسّمت ولم تزد . . . ووجدت منهما ميلاً إلى الإسلام فحبّبت لهما الدخول فيه ، واتصلت أسبابي بأسبابهما فعرفت أنهما يعرفانك ، ويسرني أن تعلم أنك كنت السبب الأول في إسلام بلقيس ، فقد كان لحديثك معها عن الإسلام أثر كبير في إسلامها ، فليهنيك أن أدخلت في الدين الحنيف سيدتين كانتا مسيحيتين . وكان أسامة عظيم السرور بما

يسمع، ولولا الموقف ورهبته، والشيخ أكبر على لاستطار فرحاً، ولتصرف تصرف الأطفال ...

واستطرد الحاج أكبر علي يقول :

وبعد أن علم المستشفى بإسلامها تنكّر لها رئيسه المسيحي فرحلت بها إلى كراتشي وسعيت لإلحاق بلقيس وأمها بمستشفى إسلامي هناك ، وكان همها الأكبر أن يحضرا للحجاز للحج، وللقائك . وقد سعينا حتى سافرنا إلى عدن في إحدى البواخر بطريقة سرية ، ومنها قدمنا إلى جدة في يوم عرفات فلم نلبث وقدمنا إلى مكة ثم عرفات في نفس اليوم على سيارات أعدتها الحكومة للحجاج القادمين في ذلك اليوم وقد أراد الله بنا خيراً فلقيناك اليوم ، وقال أسامة : فإن الله سبحانه وتعالى جعل من هذا اليوم يوم عيد للمسلمين عامة ، وللحجاج منهم خاصة ، وهو عندي يوم عيدين فقد جمع الله به شملنا في منى، وهي ملتقى الأحباب ، وسيكون إن شاء الله لنا عيداً ثالثاً ودائماً يا بلقيس .

وكانوا قد وصلوا إلى الدار ، فاستدعى أسامة والدته وعرفها إلى بلقيس وأمها وطلب إليها أن تكرمهما ما وسعها الإكرام ، وفي عصر ذلك اليوم ، وكان مجلس أسامة غاصاً بالمهنئين من علية القوم من حجاج ووطنيين ، أحضرت مباخر العود ، وتلا الحاج أكبر علي بعض الآيات ثم عقد لأسامة على بلقيس وسط سرور القوم وتهانيهم . وهكذا تم لقاء الحبيبين .



ختام

أيها القارىء العزيز :

تعوَّد الروائيون والكتّاب أن يقدّموا لمؤلفاتهم ، أما أنا فإن سياق الحوادث في روايتي يدعوني لأن أختم الكلام عنها ، وأنت لست في حاجة إلى أن تعلم أن هذه الرواية خيالية محضة ، فأنت إن كنت من أبناء هذا الوطن فإنك تعلم حقاً أن بطل الرواية أسامة الزاهر شخص ليس له وجود حقيقي ، وأن النهضة الصناعية والعلمية التي قام بها ، والصرح الاقتصادي الذي أنشأه ، والمرافق التهذيبية والاجتماعية التي أسسها ليست سوى حلم ضخم في رأس المؤلف ، الذي هو رأسي أنا ، إن كان لا بد من هذا الإيضاح . أما ما هو الغرض من تأليف هذه الرواية ، أو هذه الأكذوبة الضخمة ، فلا أظنه يخفى عليك يا سيدي القارىء ، إن كنت ممن يستعملون رؤوسهم في الشيء الوحيد الذي خلقت من أجله وهو التفكير ، فلست أحاول أن أشرح لك الغرض ، وإلا لكان هذا سوء ظن بل سوء أدب مني ، في حق عقلك وتفكيرك .

قد تراني متشائماً في بعض الفصول ، وإن كنت عظيم التفاؤل في نهاية الرواية ، وأود أن أقول لك هنا ـ ولعل هذا هو السبب الوحيد الذي دعاني إلى كتابة هذه الكلمة الختامية ـ : إني متفائل فعلاً ، بل أنا عظيم التفاؤل ، فهذه الرواية بدأت كتابتها قبل أربعة أعوام ولم أنته منها إلا اليوم ، وليس هذا لأني فكرت فيها كثيراً ، أو احتفلت بها ، فلعل العكس هو الأصح ، فقد بدأت بكتابة الفصول الأولى في عام ١٣٦٤ ثم سافرت إلى مصر لأغيب بضعة شهور نسيت في أثنائها الرواية وحوادثها ، وعدت فاهتممت بأموري الخاصة منشغلاً بها عن كل شيء ، إلى أن وقعت على الفصول المكتوبة من الرواية في العام

الماضي ، وأنا أتهيأ لقضاء شهر رمضان بالطائف ، داخل أحد الكتب التي أصطحبها عادة في مثل هذه الرحلة ، فأخذتها معي وأعدت قراءتها ، وألحقت بها فصولاً كثيرة ، ولكن رمضان أوشك على الانتهاء وعدت إلى جدة .

وللرواية بقية تطالبني بدينها ، ولم أجد من نفسي ، ولا من مشاغلي قدرة على إتمام هذه البقية الباقية فطويتها في مكتبي إلى رمضان القادم ، وأخذتها معي في مطلعه إلى الطائف ، فأكملتها ، فإذا رأيت فيها تفككاً فاعلم أن هذا هو السبب لأنها لم تكتب في أوقات متلاحقة بانتظام ، وإن رأيت اختلافاً في الأسلوب فلعل السر في هذا هو اختلاف الأوقات واختلاف التفكير حين الكتابة والتأليف .

بقي شيء واحد وهو الشيء الأهم الذي من أجله أتفاءل وأريد أن تتفاءل معي يا سيدي القارىء الكريم ، فهذه الرواية تتحدث عن الهند ، فقد أراد خيالي أن يبعد إلى الهند ، وثق أني لم أعرفها ولم أرها وإنما سمعت بها سماعاً ، ولعلّي قدمت بعض مدنها وأخرت الآخر ، وأظن أنه ليس يهمك هذا كما أنه لم يهمني ، ولا أراني في حاجة إلى تحقيق هذه المسألة التاريخية والعناية بها ، وإلا لتأخرت الرواية عاماً آخر ، تتغير فيه الدنيا تغيراً كبيراً حتى نصبح ـ أنا وهي ـ من آثار الماضي . أقول هذه الرواية تتحدث عن الهند وعن الاستعمار الإنكليزي فيها ، وقد كان ما كتب عنها هو المفهوم من حالتها يوم أن كتبنا ذلك ، أما الهند الآن فقد نالت استقلالها الذاتي وأصبحت دولتين عظيمتين ، فمساوىء الاستعمار التي قرأتها في صلب هذه الرواية قد زالت ، أو هي في سبيلها إلى الزوال . أما مساوىء الطائفية والفرقة فلعلها اليوم أعظم ظهوراً وأكثر تبياناً ، وهذه الرواية تتحدث عن مصر ، والبلاد العربية الأخرى بمثل ما تتحدث عن الهند ، وقد استطاعت حوادث فلسطين أن تخلق من العرب أمة جديدة تؤمن بنفسها ، وتؤمن بحقوقها ، وتضحي بالحياة والمال في سبيل الذود عن الشرف ، والاحتفاظ بالكرامة ، وقد جلا الإنجليز عن المدن المصرية العظيمة ، وإن بقيت لهم بقية أو بقايا في بعض المواضع ، ولكنهم بسبيل الجلاء العاجل إن شاء الله .

وقد كان الاقتصاد المصري كما ذكرنا في هذه الرواية ولكنه الآن يتحرر تحريراً منظماً على يدي بنك مصر وشركاته ، وعلى يدي عبود باشا وشركاته ، وعلى أيدي غيرهما من عظماء الرجال ، وأخيراً فإن قطرين عزيزين في هذه الحقبة القصيرة من العمر قد نالا

استقلالهما ، وتوطدت لهما أسباب السيادة ، وهما سورية ولبنان ، وإنا لنرقب في أمل واعتزاز نهضتهما الشاملة الكاملة إن شاء الله كما نرقب توثب المملكة الصغيرة الجديدة شرق الأردن في فرحة العربي الذي يسره أن يرى حديقة جاره الميتة وقد دبت فيها الحياة .

أخيراً ولعله كان يجب أن يكون أولاً ، إن هذه الرواية تتحدث عن بلادنا بأحاديث كثيرة ، بعضها مظلم شاحب ، وبعضها مؤلم كئيب ، والقليل منها مشرق الصفحة وهو الخيال . . . الخيال الجميل . . . وأنا أزعم لك أن حياتنا تتطور تطوراً حسناً ، وأننا آخذون بأسباب نهضة شاملة لا شك فيها ، فالماء الذي كانت تفتقده مدينة جدة أصبح حقيقة مثلجة للنفس منذ شهور ، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون الطائف في سبيلها لأن تكون ، وجدة القديمة في شح الماء وقلته ، والميناء الذي تتحدث عنه هذه الرواية في فصلها الأول في مدينة جدة ومصاعبها ، هو في طريقه اليوم لأن يصبح تاريخاً قديماً ، فإن العمل في الميناء الجديد الذي ترسو عنده البواخر كما هو في كل ميناء آخر من موانىء العالم يسير قدماً ولعله موشك على التمام ، وهناك أحاديث كثيرة عن إضاءة المدن الكبرى إضاءة عامة بالكهرباء ، وعن بناء مستشفيات شعبية ، وعن إصلاحات شتى تتصل بالتعليم ونظام الهجرة وما إلى ذلك ، وهذا هو الجانب الحكومي ، أما الجانب الشعبي فهو إقبال الناس على التجارة ، وتفكيرهم في إدخال الصناعات التي تحتاج إليها البلاد ونشاط الشركات الشعبية ودخول عناصر جديدة في الاقتصاد ، نهضت بأفكار الناس إلى مستوى أرفع وأسمى من ذي قبل ، ولا شك أن كل هذا جديد علينا ، وهو في ذات الوقت قليل إلى جانب ما يجب أن يكون ، وإلى جانب ما نحب ونأمل ، ولكنه كثير إلى جانب ما كنا عليه ، وإلى الزمن القصير الذي تم فيه ، فأنت إذا قرأت هذا الكتاب يا سيدي فستجد فيه شيئاً من التاريخ ، وهو الماضي الذي اختفت صوره ، وتجد فيه شيئاً من الحاضر الذي يوشك أن يزول أو الذي نتمنى أن يتبدل فيه الحال إلى خير حال ، وتجد فيه شيئاً من المستقبل الذي أرجو أنا وترجو أنت أن يكون في زمن قريب أو بعيد .



فهرست



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

- الجبل الذي صار سهلا (نفد) — الأستاذ أحمد قنديل
- من ذكريات مسافر — الأستاذ محمد عمر توفيق
- عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- التنمية قضية (نفد) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- الظمأ (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدوامة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد) — الدكتورة أمل محمد شطا
- موضوعات اقتصادية معاصرة — الدكتور علي بن طلال الجهني
- أزمة الطاقة إلى أين؟ — الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
- نحو تربية إسلامية — الأستاذ أحمد محمد جمال
- إلى ابنتي شيرين — الأستاذ حمزة شحاتة
- رفات عقل — الأستاذ حمزة شحاتة
- شرح قصيدة البردة — الدكتور محمود حسن زيني
- عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد) — الدكتورة مريم البغدادي
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- وقفة — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد) — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار بلا زمن — الأستاذ عبدالله الحصين
- كتاب في علم إدارة الأفراد — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر) — الأستاذ محمد الفهد العيسى
- طه حسين والشيخان — الأستاذ محمد عمر توفيق
- التنمية وجها لوجه — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الحضارة تحد (نفد) — الدكتور محمود محمد سفر
- عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- لحظة ضعف (قصة طويلة) — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
- الرجولة عماد الخلق الفاضل — الأستاذ حمزة شحاتة
- ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
- بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ حمزة بوقري
- أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم) — الأستاذ محمد علي مغربي
- النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
- قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي

- نبض الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- نبت الأرض الدكتورة فاتنة أمين شاكر
- السعد وعد (مسرحية) الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة) الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) الأستاذ عبدالله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية) الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية) الأستاذ عبدالله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية) الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خواطر جريئة الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- السنيورة (قصة طويلة) الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- جسور إلى القمة (تراجم) الأستاذ عزيز ضياء
- تأملات في دروب الحق والباطل الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الحمى (ديوان شعر) الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- قضايا ومشكلات لغوية الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) الأستاذ حسين عبدالله سراج
- كلمة ونصف الأستاذ محمد حسين زيدان
- شيء من الحصاد الأستاذ حامد حسن مطاوع
- أصداء قلم الأستاذ محمود عارف
- قضايا سياسية معاصرة الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي الأستاذ بدر أحمد كريم
- الإعلام موقف الدكتور محمود محمد سفر
- الجنس الناعم في ظل الإسلام الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- ألحان مغترب (ديوان شعر) الأستاذ طاهر زمخشري
- غرام ولّادة (مسرحية شعرية) الأستاذ حسين عبدالله سراج
- سير وتراجم الأستاذ عمر عبدالجبار
- الموزون والمخزون الشيخ أبوتراب الظاهري
- لجام الأقلام الشيخ أبوتراب الظاهري
- نقاد من الغرب الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- حوار.. في الحزن الدافيء الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- صحة الأسرة الدكتور زهير أحمد السباعي
- سباعيات (الجزء الثاني) الأستاذ أحمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- إليها .. (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
- البعث — الأستاذ محمد علي مغربي
- شمعة ظمأى (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- وحي الصحراء — الأستاذ عبدالله بلخير / الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه

تحت الطبع :

- قصص من تاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- هكذا علمني ورد زورث — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الطاقة نظرة شاملة — الدكتور عبدالهادي طاهر
- طيور الأبابيل (ديوان شعر) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- عمر بن أبي ربيعة — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز (تراجم) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- لا رق في القرآن — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- من مقالات عبدالله عبدالجبار — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- دعوة ودفاع — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- إليكم شباب الأمة — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- لن تلحد — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- سرايا الإسلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- التنمية قضية (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) (الطبعة الثانية) — الدكتورة أمل محمد شطا
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي
- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منهـا :

العنوان	المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مباديء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• تاريخ طب الأطفال عندالعرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
• المنظمات الاقتصادية الدولية	الدكتور حسين عمر
• الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
• التعلم الصفي	الدكتور محمد زياد حمدان

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر الحلواني

تحت الطبع :

- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الحسا (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة عبدالملك آل الشيخ
- تقييم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

مطبوعات تهامة
PUBLICATIONS
TIHAMA

صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
  (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان / الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخارجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي

- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) — الأستاذة منى غزال

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الموت والابتسامة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله أحمد باقازي
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدفاع عن الثقافة — الدكتور عبدالعزيز شرف
- من فكرة لفكرة — الأستاذ مصطفى أمين
- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث — الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب

كتاب الناشئ

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، الأستاذ يعقوب محمد اسحق

تحت الطبع :

- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب للأطفال

صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاء • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل • الضفدع
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس • الدب
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة • الخرتيت

- البــوم • البجــع • الهدهــد • الكنغــر
- الخفــاش • النعــام • فرس النهر • التمســاح

مجموعة: حكايات كليلة ودمنه

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- أسد غررت به أرنب
- الغراب يهزم الثعبان
- المكاءالتي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- سمكة ضيعها الكسل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة: التربية الإسلامية

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر • الصلاة • صلاة العيدين • صلاة المسبوق • الشهادتــان • التيــــمم
- قد قامت الصلاة • الاستخارة • صلاة الجمعة • أركان الاسلام • الوضـــوء
- صلاة الجنازة • صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة: حكايات للأطفال

نقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- ضيوف نار الزينة
- الحصان الذى فقد ذيله
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- تورتة الفراولة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition'
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.